المَقَامَةُ البَخْشِيشِيَّة لأَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق

(١٢١٩-١٣٠٤هـ = ١٨٠٥-١٨٨٧م)

تقديم وتحقيق

أميمة محمد صابر

أ. د. هيثم سرحان

قسم اللغة العربية ، برنامج الدراسات العليا

كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر

المَقَامَةُ البَخْشِيشِيَّة لأَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق (١٢١٩-١٣٠٤هـ-١٨٠٥-١٨٨٧م) تقديم وتحقيق

أميمة محمد صابر

أ. د. هيثم سرحان

قسم اللغة العربية – برنامج الدراسات العليا- كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر

تاريخ تقديم البحث: ١٦/ ٢/ ١٤٤٥ هـ **تاريخ قبول البحث:** ٢٩/ ٤/ ١٤٤٥ هـ

الملخص:

تعرضُ هذه الورقةُ مخطوطًا، لم يَسبق تَحْقيقُه مِنْ قبل، بالتقديم والتحقيق، وهو عبارة عن مَقَامَة كتبها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٥-١٨٨٧م)، حول قَضيَتَي البَخْشيش -أو ما يُعْرَفُ بالـ "اللُّهيَة"- والكُدْيَة، وتهدفُ الورقة -فضلًا عن تحقيق المخطوط وإخراجه في صورة سليمة- إلى التعريف بكاتب المخطوط، والوقوف عند محطات حياته المختلفة؛ لا سيَّما تلك التي أثَّرَت في تكوين شَخْصيَته العِلْميَّة والأدبيَّة، كما ستعرض الورقة بإيجاز لبعض آثاره وأعماله المُهِمَّة، وما يتمتع به من أسلوب أدبي فريد ومعجم لغويّ ثري، إضافةً إلى بيان موقع فَنِّ المقامَة كجنس أدبيّ وقيمته الفنيَّة، وذلك من خلال تسليط الضوء على نشأة هذا الفَنِّ وأهميته وأبرز أعلامه، والعلاقة العجيبة التي ربطته بكاتب المخطوط.

الكلمات المفتاحية: أحمد فارس الشدياق – المقامات – البخشيش- الكدية – القرن التاسع عشر.

Introducing & verifying an "Al-Maqāma Al-Bakhshishia" manuscript

By: Ahmad Faris Al-Shidyaq (1805-1885)

Oumaima Mohammed Sabir

Dr. Haitham Sarhan

Department of Arabic Language & Literature, Program of Graduate Studies, College of Arts and Sciences, Qatar University, Doha - Qatar

Abstract:

This paper presents a manuscript which has not been previously reviewed before. Written by Ahmad Faris Al-Shidiak (1805-1887), the manuscript revolves around the topic of (Bakhchish) or what is known as (Gratuity). Besides reviewing the manuscript, this paper aims to introduce the author and the different stages of his life, especially the ones that influenced the formation of his scientific and literary personality. The paper will also briefly outline some of his significant works, along with his outstanding literary style and rich linguistic lexicon. It, further, sheds light on the artistic value of this literary genre and the exceptional relationship between the writer of the manuscript and the art of Al-Maqāmat.

Keywords: Ahmad Faris al-Shidiak, Al-Maqāmat, Al-Bakhchish, Al-Kudyah, 9th century.

توطئة

يَزْخَرُ التاريخ الأدبيّ برموزٍ بشريَّةٍ كثيرةٍ حَمَلت شُعلة الريادة في مُختَلَفِ المجالات والحقولِ المعرفيَّة، وتَصَدَّرت أعمالها ومؤلفاتها الساحات النقديَّة والأدبيَّة بوصفها دراسات مركزيَّة ورئيسَة وَجَبَ على كُلِّ باحثٍ الاطلاع عليها والإفادةُ منها، ومِنْ هؤلاء الذين تَصَدَّروا الواجهة الأدبية، بما تَمَيَّزُوا به من فطنةٍ متفردة وتَمَلُّكٍ لافتٍ لنواصي اللغة وأوابدها، أحمد فارس الشدياق (١٨٠٥- ١٨٨٧م)؛ الذي يُعَدُّ رائدًا من رواد الأدب في عصر النهضة إبَّان القرن التاسع عشر إلى جانب كُلٍّ من ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١م)، ورفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م) وغيرهما، ويمكن القولُ إنَّ الشدياق كان بمنزلةِ قائد الحركةِ التجديديَّة التي شملت تمردًا كليًا على كل ما هو جامدٌ ومقيد، ونحا في موضوعاته منحى عصريًا ينتزع الأفكار من المجتمع الذي يعيش فيه[1]، فيبتعد بذلك عن التقليدية[2]، ويتجاوز كل الحدود المصطنعة بين الأجناس الأدبية، لتلبية نداء النهضة وإعادة إحياء كل ما هو كلاسيكي بروح حداثية معاصرة.

---

(١) ينظر: نجم، محمد يوسف: القصة في الأدب العربي الحديث، (١٩٦٦م)، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ص٢٥٠.

(٢) ينظر: جبران، سليمان، كتاب الفارياق مبناه وأسلوبه وسخريته، (١٩٩١م)، مطبعة الاتحاد التعاونية، حيفا، ص ٥٥.

وعليه، تُعنى هذه الدراسةُ بتحقيقِ عملٍ أدبيّ مِنْ أعمالِ الشدياق في فَنِّ المقامَة، وهو مقامَتُهُ المَوْسُومَة بـــ "المقامة البخشيشيَّة"[1]، التي يُمَثِّل البقشيش -أو البخشيش كما أسماه- موضوعًا لها، ولهذه المقامة نُسْخَتَان[2] إحداهما نُشِرَت في مجلَّة الجوائب، وأُعِيدَ نَشْرُهَا في كتاب "كتر الرغائب في منتخبات الجوائب"، والثانية هي النُسْخَة الحَجريَّة، وقد اعتُمد في هذا التحقيقِ على النُسْخَة الثانية، نظرًا لكثرة ما تُعانيه النُسْخَة الأولى مِنْ تحريفٍ وتصحيفٍ واضطراب، بَيْدَ أنَّ كُلَّ الاختلافات بين النسختين أُثبتت في الحاشية بما في ذلك سقوط تنقيط الكلمات أو الأحرف، أو تشاكل كلمتين وغيرها.

(١) سميت بذلك نسبة إلى عادة البخشيش التي مثلَّت قوام الحياة في عهد الملك بخشيش، ينظر: طرابلسي، فواز، والعظمة، عزيز: سلسلة الأعمال المجهولة أحمد فارس الشدياق، (١٩٩٥م)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ص ٢٤٠.

(٢) للاطلاع على وصف النسختين، راجع ص ٢٧ من هذا العمل.

منهجية التحقيق:

وبالجُملة، فإنَّ المنهجيَّة التي انتُهِجَت في تحقيق هذه المقامة تَتَمَثَّل في الآتي:

١- قراءة النسختين وطباعتهما.

٢- المقابلة بين النُسْخَة الحجريَّة "الأصل المعتمد" ونسخة "كتر الجوائب"، واستخراج مواطن الاختلاف بينهما وإثباتها في الحاشية.

٣- إثبات التعديلات في الحواشي حسب المواضع التي وردت فيها.

٤- استخراج معاني الكلمات الغامضة من معاجم اللغة وإثباتها في الحواشي.

٥- الإحالة على أبرز المراجع التي يُمكن العودة إليها في تتبع جذور الكلمات وتقصي معانيها.

٦- كتابة مدخل حول فَنِّ المقامة وأهميته وأبرز أعلامه.

٧- التعريف بالمؤلف ومكانته المعرفية وموقعه العلمي وآثاره الأدبية.

٨- إعداد قائمة تضم أهم مصادر التحقيق ومراجعه.

ومن الأهمية بمكان، الإشارةُ إلى أنَّ هذه الدراسة تضمُّ مهادًا نظريًا تأسيسيًا يسلِّط الضوء على فنِّ المقامات وما يتعلَّق بنشأتها وجذورها اللغويَّة، إلى جانب تناولها موقع الشدياق في ساحة هذا الفنِّ وما جعله مُفارقًا لغيره في هذا الميدان، كما تضمُّ ترجمةً لأحمد فارس الشدياق ولُمَحًا من حياته وطفولته، ولا تُغفِل في الآن ذاته الحديثَ عن آثاره العلميَّة والأدبيَّة على حد سواء قبل الولوج إلى نصِّ المقامة والشروع في تحقيقها.

نشأة المقامات وأعلامها:

على خلافِ آدابِ بقيَّة الأمَمِ يَضُمُّ الأدبُ العربيّ مِنَ الفنونِ ما يتفرَّدُ بها دون غيره، فعلى الرغم من كون آداب العالم أجمع تشترك في معظم ركائزها، وتتماثل في فنونها وألوانها، فإنَّ الأدب العربي ينتزع حَقَّ السبق وأصالة الفكرة في كثير من فنونه وأجناسه، فيكون بذلك الحاضن الأوحد لجنس أدبي كامل لا وجود لظلاله في الساحات الأدبيَّة الأخرى.

ولعل أبرز الأجناس الأدبية التي تنضح بخصوصيَّةٍ عربيَّةٍ تامَّة هو فَنُّ المقامة؛ لا سِيَّما أنَّه فنٌ عربي أصيل لا معادل له في فنون الأمم الأخرى، وتكمنُ أهمية هذا الفن في كونه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالغاية التي يخدمها؛ وهي غايةٌ كانت بداياتُها متعلقةً بدواعي تعليم النشء وتلقينهم صيغ التعبير وجماليات اللغة، وهو ما يُفسر العناية البالغة التي لقيها هذا الفّنُّ دون غيره من قِبَل الدارسين والباحثين، إذ زخرت المقامات بكم هائلٍ من ألوان البديع، وزخارف السجع، وتنوعت فيها النسب اللفظية والأبعاد الصوتية، لتُمَثِّل بذلك ثروة لغوية وأسلوبيَّة ينساق لها كل باحث عن أسرار اللغة ومقتفٍ لآثارها.

إن الحديث عن فنِّ المقامة يستدعي بالضرورة حديثًا عن بدايات هذا المصطلح وجذوره اللغويَّة؛ لا سِيَّما أنَّ لفظ المقامة سابقًا لم يكن يحمل ذات الدلالة اللغويَّة التي يحملها المصطلح اليوم؛ ففي الشعر الجاهلي مثلًا تشير كلمة

"مقامة" إلى مجلس القبيلة أو ناديها تارةً، على نحو ما نجده عند زهير بن أبي سُلْمَى (ت٦٠٩م):

وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهُم وأندِيَةٌ ينتابُها القَولُ والفِعْلُ[١]

وتارةً أخرى تشير إلى الجماعة التي يضمها المجلس، على نحو ما نجده عند لبيد بن ربيعة (ت٦٦١م):

ومَقَامَةَ غُلْبِ الرِّقَابِ كـــأنَّهُم جِنٌّ لَدَى طَرَفِ الحَصِيرِ قِيَامُ[٢]

إلَّا أنَّ المدلول اللغويَّ للكلمة تطور خلال المراحل الزمنية اللاحقة، حتى بات يؤدي وظيفة دلالية مختلفة اعتمادًا على السياق اللغوي الذي يورد فيه، فأصبح لفظ المقامة يُشير إلى حديث الشخص في المجلس قائمًا أو قاعدًا[٣]؛ سواء أكان الشخص قائمًا يتحدث بين يدي الخليفة أو يُلقي محاضرة وعظية، أو ما شابه ذلك، وعليه، أُعفِي لفظ "المقامة" مِنْ معنى القيام، وارتبطت دلالته بحديث المرء وسط جماعة من الناس[٤]، وهو المعنى الذي اعتمده بديع الزمان الهمذاني (ت٣٩٨هـــ) لتسمية مقاماته، وعلى الرغم من

(١) زهير بن أبي سلمى (ت٦٠٩م)، ديوان زهير بن أبي سلمى، (١٩٧٠م)، ط١، تح: فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ٤٢.

(٢) العامري، لبيد بن ربيعة (ت٦٦١م)، ديوان لبيد بن ربيعة، (١٩٦٢م)، تح: إحسان عباس، التراث العربي- وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ص ٢٩٠.

(٣) ينظر: زبادي، وفاء يوسف إبراهيم: الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق "دراسة أدبية نقدية"، (٢٠٠٩م)، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، ص ١١٢.

(٤) ينظر: ضيف، شوقي: المقامة، (١٩٧٣م)، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ص ٧.

أنَّ لفظ "المقامة" احتمل خلال سيرورة تطوره دلالات لغوية عدة، فإنَّ الهمذاني هو أولُ من يعود له الفضلُ في إعطاء المصطلح معناهُ الاصطلاحي[1]، ووظيفته الدلالية التي جعلت منه دالًا على فَنِّ المقامات.

(١) ينظر: مصطفى، أحمد أمين: فنون النثر في العصر العباسي، المكتبة الأزهرية للتراث، (١٩٩٥-١٩٩٦م)، ص ٨٦.

المَقَامَةُ في اللُغَة والاصطلاح:

تحتمل كلمةُ المَقَامَةُ في اللُّغةِ عِدَّة معانٍ منها: "المَقَالةُ التي يتكلَّمُ بها الخطيب ونحوه"(١)، وتعني كذلك المجلس؛ يُقال مقاماتُ الناس أيّ مَجالِسُهم(٢)، وهي أيضًا "فَنٌّ قصصِيٌّ فُكاهِيٌّ من النثر المسجوع" (٣)، أمَّا في الاصطلاح فإنَّ عموم التعريفات جاء متشابهًا في الجوهر، متباينًا في المظهر؛ إذ يُعرِّف أحمد الشايب المقامات على أنَّها: "نوع من القصص الأدبية القصيرة التي تعتمد على الخيال في تأليف حوادثها، وترمي إلى غاية مثل تعليم اللغة، وسرد الموعظة، ووصف الأشياء..."(٤)، بينما وصفها شوقي ضيف بأنَّها: "حديثٌ أدبي بليغ، وهي أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة، فليس فيها من القصة إلا ظاهر فقط"(٥)، وذهب عبد الملك مرتاض إلى أنَّها "جنس أدبي يتخذ

---

(١) معجم الدوحة التاريخي، مادة (ق و م)

(٢) ينظر: ابن منظور (ت٧١١هـ): لسان العرب، (١٤١٤هـ)، ط٣، دار صادر، بيروت، ج١٢، حرف الميم، فصل الكاف، ص ٥٠٦.

(٣) معجم الدوحة التاريخي، مادة (ق و م)

(٤) الشايب، أحمد: الأسلوب "دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية"، (١٩٩١م)، ط٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص١١٠.

(٥) ضيف: المقامة، ص ٩.

الشكل السردي نسيجًا له، ومن الشخصيات المكررة الوجوه، والمختلفة الأدوار، والطريفة الطباع أساسًا له"[1].

المقامة: الفنيَّة والأسلوب:

على الرغم ممَّا قد نجده في كثيرٍ من تعريفات الأدب الحديث من كون المقامة تُعَدُّ ضربًا من القصص القصيرة، إلَّا أنَّها في الواقع ليست كذلك؛ فالمقامة لا تُثْبِتُ للقصة من كل زاوية وناحية؛ إذ تنقصها أشياء عديدة تبعدها بالضرورة عن طبيعة القصة[2]، وإنْ تضمنت المقامة عناصر كالحكاية والحوار والوصف وغيره، فإنَّ أسلوبها في غرابته وبراعة صنعته بعيدٌ عن أسلوب القصص أو الروايات؛ لا سيَّما أنَّ المعنى في المقامة -أو الموضوع- ليس بالأمر الجلل، ولا يُمَثِّل مرتكز المقامة وعمود قيامها، بل هو أقرب ما يكون إلى الخيط الذي تُساق به الغاية التعليمية -أو غيرها من الغايات- لا أكثر؛ بمعنى أنَّ الغلبة في المقامة تكون للفظ على حساب المعنى[3]، لا العكس كما هو الحال في غالبية القصص والروايات، فالجوهر الأساسي للمقامة هو ما تتضمنه

(١) مرتاض، عبد الملك: مقامات السيوطي، (١٩٩٦م)، ط١، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص ١٢.

(٢) ينظر: الشايب: الأسلوب "دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية"، ص١١٢.

(٣) ينظر: ضيف: المقامة، ص ٩.

من عتاد لغوي بليغ، ومنظومة أسلوبية بديعة، بحيث يتميز المعنى فيها بكسوته اللفظية وحليته البلاغية لا بنفسه في حد ذاته.

وهو ما قد يُثير بدوره تساؤلًا بشأن ما يُحقق للمقامة فنيتها ويجعلها قريبة من القصة الفنيَّة؛ لا سِيَّما أنَّ هذا التقارب بينهما لا يرجع إلى توافر المقامة على عناصر القصة إجمالًا كما أُشير سابقًا، والحقيقة أنَّ الأمر منوطٌ بقضيتين رئيستين حسب محمد رياض وتار، الأولى تكمن في الطريقة الساخرة التي تُعالج بها المقامات موضوعاتها؛ إذ بصرف النظر عن ماهية الموضوع الذي تُعالجه المقامة، فإنَّها دائمًا ما تنحو في ذلك منحى ساخرًا أو تهكميًا يُمَكِّنها من طرق مختلف المواضيع بسلاسة ويُسر، والثانية تتمثَّلُ فيما تتضمَّنُه المقامة من تنوعٌ كلاميٍّ يتأتى لها عن طريق دمج بِنْيتها الأساس بمختلف الأجناس الأخرى كالشعر، والحديث، والقرآن، والأمثال...إلخ.

وهذان الشرطان لا يُحققان للمقامة فنيَّتها ويُمَيِّزان الرواية الفنيَّة عمَّا سِواها من الأجناس النثرية الأخرى فحسب، بل يُسهمان بشكل رئيسٍ في توسيع إمكاناتها السرديَّة، وجَعْلها بذلك أساسًا ينطلق ويُفيد منه الدارسون والروائيون في تأسيس الرواية العربية المعاصرة، وهو ما يُمكن التدليل عليه بمجموعة من الأعمال التي أفاد أصحابها من فن المقامات كرواية

"المقامة الرملية" لهاشم غرايبة، ورواية "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" لإميل حبيبي، وغيرها[1].

القرن التاسع عشر "بين الأزمة الحضاريَّة والنهضة العربيَّة":

إنَّ مفارقةً عجيبة تكمن في مدى مشابهة القرن التاسع عشر –في تقلبات أوضاعه الماديَّة والمعنويَّة وما لَحِقَه من اضطراب وقلق حضاريّ– لحياة أحمد فارس الشدياق وشخصه؛ إذ إنَّ ترحال الشدياق المتكرر وما صاحب ذلك من أحداثٍ ووقائع يُجسد بطريقة ما حقيقة التيارات التي سادت القرن التاسع عشر قوميًا وسياسيًا، وهو ما دفع بعدة باحثين للمراهنة على أنَّ حياة الشدياق "توجز في طياتها روح العصر الجديد وتقلباته العنيفة"[2].

عانى العربُ بعد أوج ازدهارهم –إبّان العصر العباسيّ– من أزمةٍ حضاريَّةٍ متمثِّلة في الضعف السياسيّ والتدهور الاجتماعيّ والاقتصاديّ،

(١) ينظر: وتار، محمد رياض: توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، (٢٠٠٢م)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص ١٨٣.

(٢) شكري، غالي: النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، (١٩٩٢م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص ١٧٣.

الذي أسفر بدوره عن حالةٍ من الجمود الفكريّ والجدب العلميّ[1]، بل وحتى التخلف الحضاريّ، وبات العرب -في السباق الحضاري العالمي- في درجة أدنى من غيرهم، و لم يكُن بمقدور الخلافة العثمانيَّة آنذاك أنْ تُغير من هذه الحال شيئًا، لا سِيَّما أنَّها هي الأخرى نالها من الضعف والاضطراب ما نالها، وراحت تفقد سيطرتها على الوضع كَكُل

"فلم يبزُغ فجر القرن التاسع عشر حتى كانت قد أصبَحَت واهنة القوى، يَسُودُهَا الاضطراب، ويُهدِّدُها الانحلال، فلا غرابة في أنْ يطمَع فيها الطامعون، أو أنْ تتَّقِدَ في أطرافها نِيران الفتن والثورات الاستقلاليَّة (....) وإذا هي في القرن الماضي أشبه بطائرٍ قد قصَّ أحد جناحيه إلَّا أقله..."[2].

(١) ينظر: المطوي، محمد الهادي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، (١٩٨٩م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ١٥-١٦.

(٢) المقدسي، أنيس: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، (١٩٦٣م)، دار الكاتب العربي، دمشق، ص ١٢-١٣.

وعلى شاكلة ما طال الحياة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة من وهنٍ وانحلال خلال العهد العثماني، بلغت الحياةُ الفكريَّة كذلك حالةً مُظلمةً مِنَ الأميَّة والجهل، فلمْ تَعُد الحضارةُ العربيَّة الإسلاميَّة متَّقدة بأنوار المعرفة، وخمدت نيران الخزائن التي كانت تَمُدُّ أقطار العالم بشتَّى كتب العلوم والمعارف، وخيَّم على العالم العربي نوعٌ مزمنٌ من العقم الفكري(١)؛ وعليه:

"كان الانحطاط مصير الثقافة العربيَّة التي كانت
مزدهرةً في غابر الأزمان، وأصبح الإيمانُ الدينيّ
الغيبيّ سائدًا في البُلدان العربيَّة والعقائد الدينيَّة
الجامدة نقطة انطلاقِ التفكيرِ وأساسه"(٢).

وبحكم أنَّ اللغة العربيَّة في تلك الفترة تأخرت بدورها و لم تَعُد تُلَقَّن بنجاعة كما كانت في السابق، ضعف الأدب وزاد إسفافًا؛ لا سيَّما أنَّ الإبداع الأدبي مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بقدرة اللغة على الأداء، فباتت الصورة الأدبيَّة محصورةً في الصناعات اللفظية، والتكلُّف، والتوريات، والركاكة، والتصنُع، وأصبح المعوَّلُ عليه في الكتابات النثريَّة مقتصرًا على السجع وألوان

(١) ينظر: المطوي، محمد الهادي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص٢٢-٢٣.

(٢) ليفين، زالمان: الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث "في لبنان وسوريا ومصر"، (١٩٧٨م)، ط١، ترجمة: بشير السباعي، دار ابن خلدون، بيروت، ص ٨.

البديع وكل مظاهر البهرجة اللفظيَّة، بيد أنَّ الأدب تَمكَّن تدريجيًا من التخلُّصِ من قيود التزاويق والتلاعب اللفظي مع مطلع القرن التاسع عشر وبظهور بوادر النهضة الحديثة، التي مَثَّل عصر ما قبل الشدياق منطلقًا لها وضَمَّ إرهاصاتها الأولى[1].

لم تبدأ النهضة العربيَّة الحديثة بمحض الصدفة، وإنَّما كانت وليدة مجموعة من العوامل والتحولات الفكريَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة... إلخ، التي أسهمت بشكلٍ أو بآخر في إيقاظ الأمَّة العربيَّة وتوعيتها بضرورة النهضة والتغيير؛ لا سِيَّما بعد الهجمة الاستعماريَّة التي شنَّها الغرب على الشرق، وما تمخَّض عنها من حسرةً استشعرتها الذات العربيَّة أمام التفوق الأوروبي، الذي بات مهدِدًا لمقوماتها الدينيَّة والفكريَّة والاقتصاديَّة...إلخ[2]، وعليه، فإنَّ "شرارة نهضتنا انبثقت نتيجة ماس كهربائي ولدته لحظة اصطدام بين الحضارةِ القاهِرَة والحضارة المَقهُورة"[3].

ومع بدايات النهضة راحت شوكة الأدب واللغة تشب وتقوى، لا سِيَّما في مصر؛ بحكم أنَّ النهضة فيها سبقت سواها من الأقطار العربيَّة،

---

(١) ينظر: المطوي، محمد الهادي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٢٣-٢٦.

(٢) ينظر: المطوي، محمد الهادي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٤٠-٤١.

(٣) شكري، غالي: النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، ص١٣١.

فأخذت اللغة تزدهر في ظل تيارين قويين أولهما عربيٌّ قديم تمخَّض عن إحياء التراث العربي والإفادة منه، والآخر تيار الثقافة الغربيَّة الذي جلب معه أفكاراً جديدةً وموضوعات حديثة، وعلى شاكلة مصر شهدت بلاد الشام في مطلع القرن التاسع عشر اهتماماً كبيراً بالأدب واللغة أيضًا على يد نخبة من الأدباء من أمثال ناصيف اليازجي ورفاعة الطهطاوي وغيرهما، وفي العراق على يد محمود الألوسي أبو الثناء صاحب التفسير المشهور بروح المعاني وابنه السيد عبد الله الألوسي، وفي لبنان أحمد فارس الشدياق، وغيرهم ممن أخذت ملامح النهضة تتحدد على أيديهم وتتضح معالمها[1].

أحمد فارس الشدياق (١٨٠٥- ١٨٨٧م):

هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر، المنحدر من سُلالةِ المُقدم رعد بن المقدم خاطر الحصروني الماروني[2]، وهو ابن الجَدِّ الأعلى للشدايقة كلهم، المتفرعين إلى نحو ستين فرعًا في كُلٍّ من سوريا، والعراق، ومصر،

(١) ينظر: الدُّسوقي، عمر: نشأة النثر الحديث وتطوره، (٢٠٠٧م)، دار الفكر العربي، القاهرة، ص٤٥-٥١.

(٢) تولى جبل كسروان في سوريا مدة سبعة وثلاثين عامًا في بدايات القرن السابع عشر للميلاد، ينظر: زيدان، جورجي: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج٢، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ١٠٤، وللاطلاع على تاريخ أسرة الشدياق ينظر: الشدياق، طنوس بن يوسف: أخبار الأعيان في جبل لبنان، (١٩٥٤م)، وقف عليه وناظر طبعه المعلم بطرس البستاني، ج١، مكتبة العرفان، بيروت، ص ٢٢٧- ٢٤٣.

ولبنان، ولعل نشأة المُقدم رعد في حصرون بجُبَّة بشرّي[1] في أوائل القرن الخامس عشر للميلاد[2]، هي ما يُفَسِّرُ تردد لقب عائلة فارس بين المشروقي والشدياق والحصروني[3].

إنَّ كلمة "شدياق" -إلى جانب كونها تَنْحَدِرُ مِنْ أصلٍ يوناني- لها مدلولان اثنان، أولهما ديني والآخر ثقافي علمي؛ إذ تُشير كلمة شدياق عند النصارى إلى من هو أدنى درجة من الكاهن، وتوسعت هذه الدلالة بعد ذلك لتشمل كُلَّ خادمٍ للكنيسة، دون أدنى اعتبار لمرتبته الدينية، إلَّا أنَّه وبمرور الزَّمن تغير مدلولها اللغوي ليصبح متعلقًا بـــ "ألقاب الشرف التي تطلق على كبار القوم من المتعلمين والكتاب الذين يرتفعون عن طبقة الأميين"[4]، وبامتزاج هذين المدلولين باتت الكلمة لقبًا عائليًا لأسرة أحمد فارس الشدياق، وهو أمرٌ يمكن أنْ نجد مثيلًا له عند المسلمين؛ لا سِيَّما حين يمتزج في الكلمة الواحدة المَعْنَيَين الوظيفي والديني من جهة، واللقب العائلي من جهة أخرى، كالشيخ والكاتب والإمام...إلخ[5].

---

(١) إحدى مقاطعات لبنان الشمالية.

(٢) ينظر: مسعد، بولس: فارس الشدياق، (١٩٣٤م)، نشره الدكتور فيليب الشدياق، مطبعة الإخاء، القاهرة، ص ٦.

(٣) ينظر: المطوي، محمد الهادي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٤٥.

(٤) حسن، محمد عبد الغني: أحمد فارس الشدياق، سلسلة أعلام العرب، العدد ٥٠، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص ٣.

(٥) ينظر: المطوي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٤٦.

ولد أحمد فارس الشدياق في قرية صغيرة بلبنان تُدعى "قرية الحدث[1]"، وتفاوت الباحثون في إثبات تاريخ مولده، فمنهم من ذهب إلى أنَّه ولد عام ١٨٠٥م، كالشيخ بولس مسعد (ت١٨٩٠م) ومحمد يوسف نجم (ت٢٠٠٩م)، ومنهم من أثْبَتَ في تراجمه أنَّه ولد عام ١٨٠٤م، كالمؤرخ جورجي زيدان (ت ١٩١٤م) ولويس شيخو اليسوعي (ت١٩٢٧م)، إلَّا أنَّ الرواية الأولى يمكن أن تُرجَّحَ على الثانية بحُجَّة أنَّ الدكتور فيليب الشدياق — وهو أحد أقرباء المُترجم له- أقرَّ برواية بولس مسعد وأثبتها[2].

وتُعَدُّ السُلالة التي ينحدر منها أحمد فارس الشدياق من أعرق السلالات اللبنانية، وأكثر الأسر علمًا وشهرةً وأدبًا؛ لا سِيَّما أنَّها كانت أسرة مقربة إلى البلاط وأصحاب السلطة والحكم؛ إذ كانت أسرة الشدياق تَمُدُّ المشايخ والأمراء اللبنانيين بالكتبة والمحاسبين، الذين يُدِيرُون لهم عقاراتهم وأموالهم. وبحكم ما كان يربط أسرة الشدياق من علاقات وطيدة بالحكام وأصحاب الشأن، فإنَّهم كثيرًا ما كانوا يجدون أنفسهم في خِضَمِّ

(١) هناك خلاف حول القرية التي ولد فيها فارس الشدياق، فمن الباحثين من ذهب إلى أنها قرية عشقوت وهو رأي الأغلبية، ومنهم من رأى أنَّها قرية الحدث، إلا أنَّ وصية الشدياق التي طلب فيها أنْ يدفن في قرية الحدث واصفًا إياها بـــ "مسقط رأسه" تحل هذا الخلاف وتثبت قرية الحدث على أنَّها مكان الولادة، ينظر: آصاف، يوسف: هو الباقي، (١٨٨٥م)، مطبعة القاهرة الحرة، القاهرة، ص ٨.

(٢) ينظر: حسن: أحمد فارس الشدياق، ص ٤.

المعامع السياسية التي تدور بين أبناء العمومة أو الإخوة من الأمراء، وهو ما جعلهم عرضة للوقوع في قضايا تصفية الحسابات والانتقام وغيرها[1].

وهو أمرٌ نجد له ذِكْرًا في كتابه الموسوم بـــ "الساق على الساق في ما هو الفارياق"؛ إذ صور فيه الشدياق الهجوم الذي شنَّه الأمير حيدر الشهابيّ[2] على داره هو وأمِّه، بأمرٍ من الأمير بشير الشهابي[3]؛ إذ جاء هذا الهجوم نتيجة لما نشب بين الأمير بشير ووالد الشدياق من خلاف، أجَّجَه تمرد والد الشدياق وعصيانه للأوامر، حتى بات من أبرز العناصر المتمردة على الأمير، وحينما أوشك الأمير على الفتك به، هرب الأب الثائر رفقة أبنائه، فحوَّل الأمير نقمته على أحمد فارس الشدياق وأمِّه، وأمر بنهب بيتهما وتخريبه، وهو ما يصفه الشدياق في قوله:

"وفي تلك الليلة التي فروا فيها هجمت جنود
الأمير على وطن الفارياق فَفَرَّ مع أمه إلى دار

(١) ينظر: المطوي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٤٦-٤٧.

(٢) الأمير حيدر الشهابي (١٧٦١-١٨٣٥م)، أحد الأمراء الشهابيين بلبنان، وهو من قاد الحملة التي أمر بها الأمير بشير على بيت فارس الشدياق وأمه، ينظر ترجمته في: الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (١٣٩٦هـــ): الأعلام، (٢٠٠٢م)، ط١٥، ج٢، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٢٩٠.

(٣) ينظر ترجمته: الزركلي، الأعلام: ج٢، ص ٥٧، وللاستزادة حول أحوال بلاطه ينظر: عبود، مارون: صقر لبنان "بحثٌ في النهضة الأدبية الحديثة ورجلها الأول أحمد فارس الشدياق"، (١٩٥٠م)، ط١، منشورات دار المكشوف، بيروت، لبنان، ص ٥٢-٥٥.

حصينة بالقرب منها لبعض الأمراء، فنهب النَّاهبون ما وجدوا في بيته من فضة وآنية، ومن جملة ذلك طنبور كان يعزف به أوقات الفراغ، فلمَّا أنْ سكنت تلك الزعازع رجع الفارياق مع أمه إلى البيت فوجداه قاعًا صفصفًا"[1].

- **نشأته:**

نشأ فارس الشدياق في ظل أسرة تتمتع بمجدٍ علميٍّ وسيادةٍ سياسيَّة، وهي أسرة "متَّصلة الأسباب باللغة والأدب والتفقُّه في الدين والتاريخ"[2]، إلى جانب أنَّها "ذات وجاهة مرموقة"[3]، فكان محتمًّا على الشدياق أنْ يسير على الخُطى ذاتها، ويُعَدَّ بمثل ما أُعِدَّ به إخوته ووالده قبل ذلك، فكان أنْ أرسلته أسرته إلى كُتَّاب قرية "عشقوت"، وهي القرية التي انتقل إليها والداه عام ١٨٠٥م.

(١) الشدياق، فارس بن يوسف: الساق على الساق فيما هو الفارياق أو "أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام"، (١٩١٩م)، عني بنشره يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب بمصر، القاهرة، الكتاب الأول، ص ٢٦.

(٢) الأشتر، عبد الكريم: في نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث "أحمد فارس الشدياق"، (١٩٦٦م)، النشر ١، أعلام الرواد، المكتبة الحديثة، دمشق، ص ١٥٩.

(٣) الصلح، عماد: أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، (١٩٨٧م)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ص ١٩.

وعلى الرغم من أنَّه قضى فترة وجيزة في سلك التَّعليم النظاميّ – على افتراض أنَّ الكُتَّاب يندرج تحت هذا الصنف وإنْ لم يكن– فإنَّه على شاكلة غيره من نوابغ عصر النهضة ضاق ذرعًا بمُعَلِّمِ الكُتَّاب الذي تتلمذ على يده، وذلك لضحالة زاده ورداءة منهجه في مقابل رجاحة عقل ودهاء الشدياق، ونقم عليه نقمة ظلَّت حبيسة جوفه زمنًا طويلًا، إلى حين تَمَكُّنه من تحريرها في كتاب الساق، فوصف معلمه قائلًا: "وكان المعلم المذكور مثل سائر معلمي الصبيان في تلك البلاد في كونه لم يطالع مدة حياته كلها سوى كتاب الزبور وهو الذي يتعلمه الأولاد هناك لا غير..."(١)، وقد امتد سخط الشدياق ليشمل رجال الدين مِمَّن كانوا يشرفون على تلك الكتاتيب فيقول:

"والظاهر أنَّ سادتنا رؤساء الدِّين والدُّنيا لا يريدون لرَعِيَّتهم المساكين أنْ يتفقَّهوا أو يتفقَّحوا، بل يحاولون ما أمكن أنْ يغادروهم متسكِّعين في مهامه الجهل والغباوة (...) وأنْ يكون معلموهم لا يعرفون العربية ولا الخط

(١) الشدياق: الساق على الساق فيما هو الفارياق أو "أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام"، الكتاب الأول، ص ١٥.

والحساب والتاريخ والجغرافية ولا شيئًا غير ذلك مما لا بُدَّ للمُعلِّم من معرفته..."[1].

حياته العِلْمِيَّة:

على الرَّغم من أنَّ الشدياق لم يتلق تعليمًا عاليًا أو ثانويًا، فإنه استعاض عن ذلك بعدة أمور أخرى أسَّسَتهُ وجعلته مفارقًا – في سعة علمه واطلاعه– لكل أقرانه وأترابه، ومن ذلك تعاطيه النساخة، فبعدما ضاق معلم الكُتَّاب ذرعًا بأسئلته الفطنة حول كُلِّ شاردةٍ وواردة، وخشي على نفسه أن يُعرَّى ويُفضَح جهله، أشار على والده أن يشغله بنسخ الكتب[2]، وهو ما كان سببًا في تكوين معجم الشدياق وتمكُّنه لغويًا، فكان أنْ "لبث على هذه الحالة مدة طويلة فاستفاد منها ما أمكن لمثله أن يستفيد من تجويد الخط وحفظ بعض الألفاظ"[3].

(١) المرجع نفسه، ص ١٥.

(٢) ينظر: البابا، محمد زهير: أحمد فارس الشدياق "دراسة موجزة لمكانة أسرته وقصة حياته وتنقلاته"، (٢٠٠٢م)، مجلة التراث العربي، المجلد ٢٢، العدد (٨٦-٨٧)، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ص ٣٣٣.

(٣) الشدياق: الساق على الساق فيما هو الفارياق أو "أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام"، الكتاب الأول، ص ١٧.

وبحكم أنَّ والد الشدياق كان محبًا للمطالعة وكثير القراءة، بدليل قوله: "فإنَّ أباه قد أحرز كتبًا عديدة في فنون مختلفة"(١)، فإنَّه تَسَنَّى للشدياق أنْ يُفيد إفادة بالغة من مكتبة والده وما ضَمَّته من كتبٍ حول علوم مختلفة، وتَمَكَّن من تغذية استعداده الفطريّ للخوض في الأدب، وهو استعدادٌ أشار إليه في قوله: "كان للفارياق ارتياحٌ غريزيٌّ من صغره لقراءة الكلام الفصيح وإمعان النظر فيه، ولالتقاط الألفاظ الغريبة التي كان يجدها في الكتب"(٢).

فنَمَّى بذلك ذوقه الأدبي، وزاد توسُّعًا في ضروب العلم المختلفة إثر الرعاية العلمية التي أحاطته من قِبَل إخوته(٣)؛ لا سِيَّما أخوه أسعد، الذي وُصِفَ بأنَّه "نابغة عصره ذكاءً وفطنةً"(٤)، فتتلمذ الشدياق على يديه، وكان يعرض عليه ما ينظمه من أشعار ويقرأ عليه شيئًا من النحو وغيره(٥).

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٣) لفارس الشدياق أربعة إخوة وهم: طنوس الشدياق (١٧٩١-١٨٦١)، منصور الشدياق (١٧٩٥-١٨٤١)، أسعد الشدياق (١٧٩٨-١٨٣٢\٣٠)، غالب الشدياق (١٨٠٠-١٨٤٢)، للاستزادة حول هذه الشخصيات ينظر: المطوي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٥٠-٥٤.

(٤) زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ص ٩٥.

(٥) ينظر: المطوي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٦٣.

حياته العَمَلِيَّة:

أمَّا بالنِّسبة لحياته المهنيَّة، فقد ظلَّت النساخة متعلقة بردائه أمدًا طويلًا، وكان كلمَّا حاول التخلص منها عاد إليها راكضًا، لما كان يطاله من ضيق العيش وصعوبة الحال. ولشدَّة إتقانه لهذه الحرفة وبراعته وجودة خطِّه، بلغ صيته الأمير حيدر الشهابي، فاستدعاه لينسخ له ما وصفه الشدياق بأنَّه "دفاتر كان يودعها كل ما كان يحدث في زمانه"(١).

وعلى الرغم من صنائع هذا الأمير مع والد الشدياق سابقًا، فإنَّ الشدياق تغاضى عن كل ذلك طمعًا في أن يُقَرَّب من الأمير ويصبح من خاصته، لعلمه أنَّ ذلك سيفتح له آفاقًا بين أصحاب الشأن والأمراء، ويبلغ إثر ذلك ما بلغه والده وإخوته قبله. بَيْدَ أنَّ أمانيه لم تُحقق، و لم يَعُدْ عليه نفعٍ من حرفته تلك، ولأنَّ نفسه كانت عزيزةً عليه لم يسأل الأمير أو يطلبه شيئًا، بل راح يعبث بصورته ومكانته أيَّما عبث في الفصل الخامس من كتابه الساق، وهجاه وسخر منه إلى حد أنه غيَّر اسمه من الأمير حيدر إلى "بعير

(١) الشدياق: الساق على الساق فيما هو الفارياق أو "أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام"، الكتاب الأول، ص ٢٩.

بيعر"، فيقول: "لَّما شاعت براعته في النسخ أرسل إليه من اسمه على وزان بعير بيعر يستدعيه لنسخ..."[1].

وعليه، بَحَثَ الشدياق عن مهنةٍ أخرى تفتح له باب الرزق وتَقيه شدَّة الفاقة، فحاول أنْ يعمل لصالح أميرٍ درزي كان أخوه يعمل عنده سابقًا، لكنَّه سرعان ما ترك العمل معه، نظرًا لخشونة عيش الدروز، ولِمَا وقع بينه وبين أميرهم من خلافٍ بسبب هجوه إياهم، فعاد إلى النساخة، ثمَّ خاض في حِرفة التجارة مع صديق له، وباءت كسابق تجاربه بالفشل، فَعَاد مجددًا للنساخة بعدما تبيَّن له أنَّ "شق القلم أوسع من حقائب البياعة، وأن سواد المداد أبهى من ألوان البضاعة" [2].

وعلى الرغم من أنَّ الشدياق رضي بخشونة العيش وقلَّة الوارد، فإنَّه عاد ليخوض تجربةً أخرى بعدما شجَّعه صديقه على ذلك، وهي

> "أنْ يستأجرا خانًا على طريق مدينة الكعيكات (...) ولبثا فيه يبيعان ويشتريان (...) حتى انتشر صيتهما عند الواردين والصادرين (...) وكثيرًا ما انتاب خانهما أهل الفضل والبراعة،

(١) الشدياق: الساق على الساق فيما هو الفارياق أو "أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام"، الكتاب الأول، ص ٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٧.

والوجاهة والاستطاعة، حتى كأنَّه كان
حديقة يتفرج فيها المكروب"[1]

إلَّا أنَّ تجربته هذه لم تَدُمْ، وعاد إلى النساخة "وإن كان ذلك على غير مراده"[2]، وظلَّ كذلك إلى أنْ غادر لبنان إلى مصر عام ١٨٢٦م.

الشدياق في مصر (١٨٢٦-١٨٣٤م):

لعلَّ المتتبع للأحداث التي خَاضَها الشدياق في مصر يُدرك ما لهذه البلاد من أثرٍ بالغٍ في إعادة برمجة مجرى حياته، وإكسابه منظورًا جديدًا ومغايرًا للأمور من حوله، انطلاقًا من عزوفه عن التبشير والمبشرين[3]، ووصولًا إلى تَحَوُّله للعمل الصحفي؛ إذ اتَّصَل الشدياق بالوجيه نصر الله الطرابلسي (١٧٧٠- ١٨٤٠م)[4] علَّه يتوسَّط له ويعاونه على كسب وظيفة تغنيه عن العمل مع المبشرين، فكتب له رسالةً استنكر عليه الوجيه لاحقًا أسلوب التسجيع فيها، بَيْدَ أنَّه استدعاه إلى مجلسه لاختبار قدرته وإمكاناته

(١) نجم، محمد يوسف: الأدب العربي في آثار الدارسين، ط١، (١٩٦١م)، بيروت، دار العلم للملايين، ص ١١٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٩.

(٣) ينظر: المطوي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٧٥.

(٤) ينظر ترجمته: الحلبي، محمد راغب الطباخ (ت١٣٧٠هـ): أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، (١٩٨٨م)، تح: محمد كمال، ط٢، مجلد ٧، دار القلم العربي، حلب، ص ٢٥٧.

الفكريَّة والأدبيَّة، ودارت بينهما مساجلةٌ أدبيَّة، عَرَفَ فيها كلٌّ منهما الآخر، و لم يَكَدْ الشدياق يُغادر مجلسه ذاك حتَّى جاءه عرضُ الوجيه:

" هل لك في أنْ تكون كاتبًا عند رجل
من السُراة الأغنياء يريد أنْ ينشئ ممدحًا
يكتب فيه بلغات مختلفة مساعيه ومعاليه،
فيكون شغلك فيه في كل يوم نظم بيتين
أو أكثر بحسب الاقتضاء"[1].

والممدح المقصود في كلامه هذا هو صحيفة الوقائع المصرية التي صدرت في ٣ ديسمبر ١٨٢٨م[2]، وقد أورد الشدياق في أحد فصول كتابه الساق صورةً لعمله في هذه الصحيفة تحت عنوان "في أبيات سرية"، فقال: "وتوجه إلى الممدح فما استقر به المجلس إلا وورد بشيرٌ إليه وبيده رقعةٌ فيها بيتان يراد ترجمتهما ..."[3]. ولعلَّ واحدة من أهمِّ ثمرات عمل الشدياق في هذه الصحيفة، تَنَبُّهُه إلى أنَّ زاده المعرفي الذي كوَّنه في لبنان لم يكن كافيًا، فراح يتتلمذ على يد مشايخ الأزهر، وغيرهم مِمَّن عرفهم في دار الوقائع، كالشيخ عبد الرحمن الصفتي[4] الذي تعاون مع الشيخ شهاب الدين محمد

(١) نجم: الأدب العربي في آثار الدارسين، ص ٢٦٤.

(٢) ينظر: المطوي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٧٧.

(٣) الشدياق: الساق على الساق فيما هو الفارياق أو "أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام"، الكتاب الثاني، ص ٥٦.

(٤) ينظر ترجمته: الزركلي، الأعلام، ج٣، ص٣٠٩.

بن إسماعيل بن عمر المصري[1] في تصحيح القسم العربي بدار الوقائع تحت إشراف الخواجه نصر الله رئيس التحرير آنذاك[2].

وبناءً عليه وعلى غيره من الأحداث[3]، أيقظت مصر، بكل ما كان فيها من تثاقف عربي أوروبي، ومكانةٍ علميةٍ واجتماعيةٍ وسياسيةٍ مرموقة، مَلَكَات الشدياق ووسَّعَت مداركه اللغوية والأدبية على أصولٍ جديدةٍ لم تكن لتَتِمَّ له في أيِّ بقعةٍ أخرى من بقاع العالم، حتى أصبح يُقال: "إنَّ الشدياق كاتب لبناني المولد، ولكنَّه مصري الهوى مهما طال اغترابه في بلاد العالم"[4]

الشدياق في أوروبا (١٨٣٤- ١٨٥٧م):

إنَّ واحدًا من أهمِّ عوامل تكوينِ شخصيَّةِ الشدياق الفكريَّة والأدبيَّة هو إقاماته المتعدِّدة في مختلف أنحاءِ أوروبا، لا سيَّما أنَّ هذه الإقامات حفلت بنشاطٍ غزيرٍ في ميادين شتَّى كميدان التأليف المدرسيّ والتَّعليم وتصحيح منشوراتِ المطبعة وغيرها، وتُعَدُّ إقامته في مالطة البداية الأولى للمرحلة الأوروبيَّة من حياة الشدياق؛ إذ مَهَّدت مالطة السبيل أمام الشدياق لينتقلَ إلى أوروبا بعدما اتَّصل بحضارتها هناك، فهذا الاتِّصال -وإنْ لم يبلغ عمق

(١) ينظر ترجمته: المرجع نفسه، ج٦، ص٣٨.

(٢) ينظر: عوض، لويس: تاريخ الفكر المصري الحديث، (١٩٦٩م)، ط٣، ج٢، دار الهلال، القاهرة، ص٢٩٤.

(٣) للاستزادة حول تفاصيل إقامة الشدياق في مصر وما عرض له من أحداث هناك ينظر: المطوي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٧٢-٨٦.

(٤) خورشيد، فاروق: مصر في أدب الشدياق، (١٩٣٧م)، الهلال، مصر، ص٥٨.

الاتِّصال الذي سيحدُث لاحقًا- مَكَّنَهُ من استكشاف مختلف الجاليَّات الأوروبيَّة، والاحتكاك بطبقات اجتماعيَّة متباينة، من رجال أعمالٍ وسياسيين ومستشرقين وغيرهم، وهو ما سَلَّحهُ بكلِّ ما يحتاج معرفتهُ من أساسيَّات اللغة والطباع وغيرها، حتَّى إذا انتقل بعد ذلك إلى إنكلترا -أولى البلاد الأوروبيَّة- وَجَدَ الطريقَ أمامهُ مُمَهَّدة[1].

الشدياق في تونس (١٨٥٧- ١٨٥٩م):

لم تتجاوز إقامة الشدياق في تونس سنتين تقريبًا، إلَّا أنَّ المرحلة التونسيَّة في حياته كانت بالغةَ الأهميَّة والتأثير في نواحٍ عدَّة، فعلى الرغم مِنْ فَشَله فيها على الصَعيدِ المهنيّ، فإنَّه خَرجَ منها مُتَسَلِّحًا بدوافع جديدة للمُضيّ قُدمًا؛ إذ مَثَّلَت تُونس الدافع الأول للشدياق لإصدار جريدة الجوائب بالآستانة لاحقًا، بغيةَ إبرازِ كَفاءته للتُونسيين في مَيْدانِ العملِ الصحفيّ، كما أُتيح له في هذه الفترة أنْ يُصبح عَلَمًا بارزًا في تونس؛ فبات يُشارك في مجالسِها ومهرجاناتِها الأدبيَّة جنبًا إلى جنب مع أهمِّ وأكبر شعرائها كمحمود قابادو[2] وغيره.

---

(١) ينظر: المطوي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ٨٧-١٠٣.

(٢) هو محمود بن محمد (أو علي) قابادو التونسيّ، وهو شاعرٌ ومفتي، تعود أصولُهُ إلى صفاقص، إلَّا أنَّ سلفه انتقل إلى تونس فوُلد ونشأ بها، كان مولعًا بعلوم البلاغة والشعر، وغزير العلم بالفقه والفنون، وُلِيَّ التدريس في جامعة الزيتونة ثُمَّ الفتوى على المذهب المالكيّ، وتوفي عام ١٨٧١م. ينظر ترجمته: الزركلي: الأعلام، ج٧، ص١٨٥.

ولعّلَّ أبرز ما في هذهِ المرحلة هو بلورَتُها لتفكيرهُ الإصلاحيّ- إثْرَ مباحثاته العديدة مع المُصلحين التونسيين- وزيادتها من عُمق ثقافته، بكثرةِ محاوراتهِ مع شيوخِ وعلماء الزيتونة[1]، ممَّن أشاد بفضلِهم لاحقًا في الجوائب. كما تَعَرَّف خلالها على العديد من التونسيين الذين سيكونُ لهم دورٌ مهمٌ في مساعدته ماديًا فيما بعد؛ لا سيَّما في مسألةِ طبعِ كُلٍّ من رحلتي الواسطة وكشف المخبأ، بل وحتَّى سند الجوائب وإنقاذها من عثرة التوقف من حين لآخر[2].

وفاته (١٨٨٧م):

في أواخر حياته أُصيب الشدياق بداءٍ لم ينجع دواءٌ في معالجته، وإثره فارقَ الحياة يوم الثلاثاء ٢٠ سبتمبر من عام ١٨٨٧م[3]، وما إنْ ذاع خبر وفاته حتَّى نعاه الشرق والغرب، وودَّع العالم بأسْرِه "رجل العلم والأدب، وشيخ الصَّحَافة، وفقيد النهضة العربيَّة"[4]، وبحكم أنَّه ترك وصيَّة بعده يُوصي فيها برغبته في أنْ يُدفنَ في لبنان، أقام له ابنه مأتمًا حضره كُلٌّ مِنْ كبار ووزراء الدولة، وشيوخ الدِّين والعلم، والصحفيين والسفراء، ونَفَّذَ له وصيَّتهُ بنقل نعشه إلى بيروت، وهو مشهدٌ وصفه بولس مسعد بقوله:

---

(١) أقدم جامعات العالم الإسلامي في تونس.

(٢) ينظر: المطوي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص١٢٥-١٤٦.

(٣) ينظر: آصاف: هو الباقي، ص ٢.

(٤) ينظر: المطوي: أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، ص ١٨١.

"وخرج الموكب من القصر في نظامٍ بديعٍ بين صفَّينِ من الجماهيرِ المُحتشدة على جانبَي الطريق حتَّى الميناء، فكانَ مشهدًا فخمًا رائعًا قلَّما شَهِدَت الآستانة مِثْلَه، وكان اثنان من وزراء الجولة الفخام يرافقان نجل الفقيد ويُعَزِّيانه، ونُقِلَت الجُثَّة إلى الباخرةِ النمسويَّة التي أُعِدَّت لنقلها إلى لبنان على زورقٍ جميل، نُشِرَت فوقه الأعلام منكسة بين صفين من الزوارق، تُقِلُّ عظماء الدولة وكبراءها"(١).

(١) ينظر: مسعد: فارس الشدياق، ص ٢٥.

المقامات الشدياقيَّة:

لا يُمكنُ للمُتَأمِل في العلاقة التي تَجمعُ بين كُلٍّ مِنَ الشدياق وفَنِّ المقامة ألّا يَتنبَّه إلى ما يَشُوبُها من غرابةٍ ولطافة؛ لا سِيَّما إذا ما تَفَطَّن المرء لموقف الشدياق مِنْ فنِّ المقامة وكراهيته له، بل ونفوره مِنَ الخوض فيه، ففي كتابه الساق مثلًا يُرقِّم الشدياق مقاماته الأربع[1] بالرقم"١٣"، وهو رقمٌ منحوس في العُرف السَّائد[2]، كما أنَّه يُعلِّق عليها ساخرًا في بداية الفصل الرابع عشر من الكتاب الأول فيقول: "الحمد لله. الحمد لله. قَدْ تخلَّصت من إنشاء هذه المقامة ومن رقمها أيضًا، فإنَّها كانت باهضةً، و لم يَبَقَ لي هَمٌّ منها سوى حَثِّ القارئ على مُطالعتها (...) لا تَخَف، إنَّما هي أربعٌ لا غير كما وعدتك"[3].

(١) يضم كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق أربع مقامات نموذجية لا غير وهي مرتبة كالآتي: مقامة "في الفصل الثالث عشر"، الكتاب الأول، ص ٦٢، تليها "مقامة مقعدة"، الكتاب الثاني، ص ٦٠، ثم "مقامة مقيمة"، الكتاب الثالث، ص٢٤٠، وأخيرًا "مقامة ممشية"، الكتاب الرابع، ص٣٤٤.

(٢) ينظر: عاشور، رضوى: الحداثة الممكنة "الشدياق والساق على الساق"، (٢٠٠٩م)، ط١، دار الشروق، مصر، ص ٣٦.

(٣) الشدياق، الساق على الساق فيما هو الفارياق أو "أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام"، الكتاب الأول، ص ٦٦.

ولعَلَّ واحدًا من الأسباب التي دفعت بالشدياق للخوضِ في هذا الفَنِّ هو رغبتهُ في اختبار مهارته وبراعته الكتابيَّة، بل وحتَّى قدرته على محاكاة الكلاسيكيَّات والتفوُّق عليها، وفي ذلك يقول: "قد مَضَت عليَّ برهةٌ من الدَّهر من غير أن أتكلَّف السجع والتجنيس، وأحسبني نسيت ذلك، فلا بُدَّ مِنْ أنْ أختبر قريحتي في هذا الفصل فإنَّه أولى به من غيره"(١)، ومن المُهِمِّ الإشارة إلى أنَّ تمرُّد الشدياق على الشَّكل القديم للمقامة، لا يرجع إلى كونه عاجزًا عن محاكاته، وإنَّما محاولةً منه لتحدي قيودها الجامدة والخروج عن قواعدها؛ وهو ما دفع به إلى إنتاج المقامة في كتابه الساق بشكلٍ معاصر، أفاد فيه من الموروث النثري الكلاسيكيّ عمومًا، ومن فَنِّ المقامة خصوصًا، وتَمَكَّن بذلك من تقديم مقاماته برداءٍ حداثيّ، يقوم على ابتلاعه للقديم وهضمه، ثُمَّ إعادة تَمَثُّله وتجاوز عناصر الجمود فيه(٢).

إنَّ المقامة عند الشدياق لا تُعَدُّ بديلًا عن الكتابةِ الجديدةِ بقدر ما هي رافدٌ من روافدها، فالشدياق لم يكن يهدف قط للتخلِّي عن الأعمالِ الأدبيَّة أو اللغويَّة الكلاسيكيَّة، بل سعى جاهدًا لتقديمها في حُلَّة تلائم الجيل الجديد وتتماشى مع ضرورات عصره. وعلى الرغم من انتقاد الشدياق

(١) المرجع نفسه، ص ٦٢.

(٢) ينظر: عاشور: الحداثة الممكنة "الشدياق والساق على الساق"، ص ٣٦.

للمقامة في عدَّة مواطن كما سبق وأُشير، فإنَّ هناك مَنْ ذهب إلى أنَّ كتاب الساق بأكمله مرتبطٌ ضِمنًا بفَنِّ المقامة؛ أي أنَّ "بنية المقامة وأُسُسَها الأسلوبية هي الطَّيْفُ الغائب الحاضر في نَصِّ الشدياق"(١)، وبلغةٍ أدق: "تُشكِّلُ المقامة في شَكْلٍ مُطور أحد المداميك الذي أنشأ الشدياق بِنْيَانَهُ على أسَاسَاتِه"(٢).

اعتمد الشدياق في مقاماته على شخصيَّتين رئيستين هما: الراوي والمروي عنه؛ فالراوي عنده هو "الشدياق"، وهو مُؤلِّفٌ مُعْلَن، والمروي عنه هو "الفارياق" وهو الشخصيَّة المتخيَّلة، التي تُمَثِّلُ الشدياق ضِمنًا، وترتكز في تفاصيل حياتها على حياته، وهاتان الشَّخصيَّتان تقابلان في مقامات الهمذاني (ت٣٩٨هـ) كُلًّا من شخصيَّتَي أبي الفتح الإسكندري، وعيسى بن هشام، والأمر ذاته ينطبق على مقامات الحريري (ت٥١٦هـ) وشخصيَّتَي الحارث بن همام البصري، وأبو زيد السروجي، ويمكن تلخيص موقف الشدياق مِنْ فَنِّ المقامة بوصفه موقفًا أكثر تركيبًا وتعقيدًا مِمَّا أُعْلِن عنه بطريقة ساخرةٍ في الفصل الرابع عشر من كتابه الأول ضمن كتاب الساق:

(١) عاشور: الحداثة الممكنة "الشدياق والساق على الساق"، ص ٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٥.

"يرفضُ الشدياق الجُمود وتأبيد الأشكالِ لمئات السنين، وإعادة إنتاجها عبر المحاكاة (...) والموقف الذي يتَّخذه الشدياق من المقامة هو موقفه نفسه من مجمل التراث الأدبي، وهو موقفٌ يستعصي في الممارسة إلَّا على أمثاله مِمَّن يعرفون هذا التراث معرفةً عميقة"(١).

بين يدي المقامة:

أمَّا المخطوطُ الذي تَسْتَهدِفُهُ هذه الورقة بالدِراسَةِ والتَّحقيق فهو مَقَامَةٌ كتبها أحمد فارس الشدياق حول موضوع "البخشيش"، أو كما يُسَمَّى في بعضِ المناطِق العربيَّة "البقشيش"، وعلى الرغم مِنْ صعوبةِ الوقوف على معنى هذه الكلمة -بهذا اللفظ- في معاجم اللُغة، إلَّا أنَّ المعنى نفسه موجود مع اختلاف اللفظ؛ إذ يُطلَقُ على البخشيش أيضًا اسم "اللُّهية"، فعند الأزهري(ت٣٧٠هـ): اللُّهَى هي أفضل العطايا(٢)، ومُفرَدُها لُهْوة أو لُهْية، ومِنها قولُ النَّابِغة الذُبياني(ت٦٠٥م):

(١) نفسه، ص ٣٨.

(٢) ينظر: الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الهروي (ت٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، (٢٠٠١م)، ط١، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٦، ص ٢٢٧.

عِظامُ اللُّها أولادُ عُذْرَةَ إنّهُمْ لَهامِيمُ يَسْتَلْهُونها بالجَراجِرِ[1]

واللُّها جمع لُهوة من المال؛ والأصل في اللُّهوة أنَّها الحُفنة من الطعام التي تُجْعَلُ من فمِّ الرَّحا، أو ما يُلقى في فم الرَّحى من الحَبِّ للطَّحنِ[2]، كما في قول عمرو بن كلثوم التغلبي (ت٥٨٤م):

يَكُونُ ثِفَالُهَا شَرْقِيّ نَجْدٍ ولُهْوَتُهَا قُضَــاَةَ أَجْمَــــعِينَا[3]

فيُقال: إنَّ في رحاك لُهوةً، أو ألهيت لهُ لُهْوَةً من المال كما يُلهَى في حُرِيِّ الطاحونة[4]، فضُرِبَت مَثَلًا للعطية[5]، ويُقال: عِظام اللُّهَى أي عظام العطايا[6]، وعند ابن دُرَيْد (ت ٣٢١هـ) عِظامُ اللُّهى أي كثيرو الخَيْر[7]، وعليه، فإنَّ الشدياق اختار لفظ "البخشيش" عنوانًا لمقامته دلالةً على سلوك "العطيَّة" التي تدور المقامةُ حوله.

---

(١) الذبياني، أبو إمامة زياد بن معاوية بن ضباب بن مَرَّة (ت٦٠٥م)، ديوان النابغة الذبياني، (١٩٨٥م)، ط٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ص ٩٨.

(٢) معجم الدوحة التاريخي، مادة (ل ه و)

(٣) التغلبي، أبو الأسود عمرو بن كلثوم (ت٥٨٤م)، ديوان عمرو بن كلثوم، (١٩٩٦م)، ط٢، تحقيق وشرح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٧٢.

(٤) ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، ص ٢٢٧.

(٥) ينظر: الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، ص ٩٨.

(٦) ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، ص ٢٢٧.

(٧) ينظر: ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (٣٢١هـ)، جمهرة اللغة، (١٩٨٧م)، ط١، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ج٢، ص ٩٩٠.

ويُمكن القول إنَّ المقامَة تدور حول قضيتَي الكُدية والبخشيش، من خلال استعراضِ رحلةٍ قام بها أحد السُوَّاح إلى إحدى الممالكِ التي يَحكُمُها ملكٌ عجيب لاستشفافِ ما في تلكَ المَمْلَكَةِ من عجب:

" فقلتُ في نفسي: إنِّي بحمد الله مِمَّن يُطيقُ السَّفر، وعندي فيه رفيقٌ من الأصفر، وهذا وقتٌ تطيب فيه الأسفار في البحار، وما ورائي عوائق وأشغال من الأهلِ والعيال، فما لي لا أقْصِدُ تلكَ البلاد التي احتوت على هذا العَجَب؟ وهو عند الباحثين عن الغرائب غايةُ الأرَب"(١).

ويستعرضُ هذا السائحُ خلال رحلته كُلَّ ما يَعْرِضُ له من سُكَّانِ تلك المملكة، وما يَشهَدُهُ بنفسه منْ عادة البخشيش الغريبة عليه: " فقال: قد بقي بَخْشِيش الزورقِ ليَتمَّ الأَنَقُ، قلتُ: ما معنى البخشيش بعد تعيين مِقدار الأجَر؟ قال: هو خاتمةُ الأعمالِ..."(٢).

(١) مخطوط المقامة البخشيشيَّة المنشور في مجلة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، ص٧١، لبيانات المخطوط راجع ص٢٥.

(٢) نفسه، ص٧٢.

المقامة البَخشِيشيَّة فنيًّا:

إنَّ المتأمل في بنية المقامة البَخْشِيشيَّة يُدرك ما بينها وبين البِنى المقاميَّة الموروثة -كما عند الهمذاني والحريري وغيرهما- من تشابه؛ لا سيَّما على صعيديّ الشَّكل واللُّغة، إذ اجْتَرَّ الشِّدياق الأسلوب المقاميّ السرديّ الموروث نفسه، وعبَّر عنه بجهاز لغويٍّ واصطلاحيٍّ مماثلٍ لذاك المستخدم عند كُتَّاب المقامات قبله، بيد أنَّ سيره على الخطى ذاتها لا يعني خُلُوَّ مقاماته من طابع التجديد والابتكار؛ خصوصًا على صعيد المضمون والفكرة، ففي المقامة البَخْشِيشيَّة مثلًا عالج الشِّدياق قضيَّة مستقاة من واقع حياته وعصره، وهي قضيَّة "البخشيش"، التي تُمثِّلُ موضوعًا منقطع الصِّلة بمواضيع المقامات التقليديَّة، وعلى الرَّغم من قُرب قضيَّة "البَخشِيش" كفكرة من قضيَّة "الكُدِيَّة" -التي تمثِّلُ جوهر فَنِّ المقامات وموضوعها- فإنَّها تختلف كسلوك وكممارسة اجتماعيَّة، وهو ما دفع الشِّدياق لمقاربتها مقاربةً نقديَّة اجتماعيَّة؛ سعى من خلالها لنقد ذلك السلوك الاجتماعيّ وتحليل مكوناته متوسِّلًا بأساليب عدَّة كالقصِّ، والسخريَّة، والتهكم، والتعظيم، والاستمالة وغيرها.

وإلى جانب تقنيات السَّرد والحوار التي مازج الشِّدياق بينها مستعينًا بمخزونه اللغويّ الثريّ وتراكيبه البليغة، قدَّم الشِّدياق تحليلًا مُعمَّقًا للسلوكيات الاجتماعيَّة التي سادت المجتمع تلك الفترة؛ إذ انتقى نماذج إنسانيَّة معيَّنة ودفعها للتعامل مع ذلك النوع من السلوكيَّات مسلِّطًا الضوء على ما يُخلِّفُه ذلك من آثار على الصعيدين النفسيّ والاجتماعيّ، وفي سبيل تحقيقه لذلك وظَّف الشِّدياق جملة من المرجعيَّات الثقافيَّة والفكريَّة الموروثة؛

إذ ليس من الصَّعب الوقوف على مواطن اختلاط أسلوب الشِّدياق بأساليب مرجعيات مختلفة، من أبرزها القرآن الكريم، الذي كان لتعبيراته وتراكيبه حضورٌ كبير في نصِّ المقامة، وفي ذلك شواهد عديدة كقوله: "تالله لأكيدنَّه"(١)، "ما رأيت كاليوم بشيرًا ونذيرًا"(٢)، "الداعي لك آناء الليل وأطراف النهار"(٣)، وغيرها من التراكيب التي لا تخلو من روح التعبير القرآني وتتماثل مع لفظه وإيقاعه، مِمَّا يعني أنَّ النصَّ الدينيّ مثَّل رافدًا أساسيًّا من الروافد التي استند الشِّدياق عليها في بناء مقامته.

وفي سياق الحديث عن عناصر هذه المقامة الأبرز، يقف الحوار كأحد أهمِّ عناصرها الفنيَّة التي اعتمدها الشِّدياق لإغناء المقامة ونقلها من حالة الجمود الباعثة على الملل إلى حالة أكثر حيويَّة، بل ويتجاوز الأمر ذلك إلى كون الحوار يُمثِّل ما هو أشبه بالجسر الواصل بين المحمولات الثقافيَّة والفكريَّة لشخصيات المقامة والقارئ؛ لا سيَّما أنَّه لا سبيل أمام القارئ للتَّعرُّف على ما تضمره الشخصيَّة من أفكار وتوجُّهات إلا من خلال معاينته لحوار بينها وبين شخصيَّة أخرى، وهو ما يضمن في الآن ذاته تصاعدًا في الأحداث وتأجيجًا للصراع وقُربًا من الغاية النهائيَّة المُتمثِّلة في فكرة المقامة أو جوهرها، ومن الشواهد الكثيرة على توظيف الشِّدياق لعنصر الحوار قوله: "وقلتُ: دونكَ الإجَارَةُ المُقَرَّرَة، فقال: قد بَقِي بَخْشِيش الزورقِ"(٤)، "

(١) م. ج، ص٧٩.

(٢) نفسه، ص٧٠.

(٣) نفسه، ص٧٩.

(٤) نفسه، ص٧٢.

فقالت امرأتي: قد وَجَبَ البَخْشِيش، وما عنهُ مُحِيد ولا مَرَد، قلتُ: أنتِ أدرى بما يَجِبْ"[1]، "قال: عشرين قرشًا، قلت: هذا كثير"[2]، وغيرها.

وعلى غرار المقامات عمومًا، يتميَّز المعجم اللُّغويّ المستخدم في المقامة البَخْشِيشِيَّة بثرائه ووفرته، ولا شكَّ في أنَّ ذلك راجعٌ بالضرورة إلى كون الشِّدياق نفسه يُعَدُّ لغويًا مضطلعًا بأسرار اللُّغة وتراكيبها، وهو ما مكَّنه من تطويع اللُّغة وتشكيلها بحسب ما تقتضيه الغاية، وإلى جانب معرفة الشِّدياق اللُّغويَّة فقد أفاد أيضًا من اطِّلاعه الواسع على التراث الأدبيّ وما يضمُّه من موروثٍ مقاميّ مِمَّا كثَّف من لغته وجعل لها وقعًا خاصًا يمزج بين أسلوبه المتفرِّد من جهة، وأساليب غيره من كُتَّاب المقامات من جهة أخرى؛ إذ عمد الشِّدياق إلى استخدام الكلمات السَّهلة والمفهومة، وشيءٍ يسير من الكلمات الغريبة[3]، ولعلَّ هذا المزج بين الألفاظ القويَّة الجزلة وغيرها من الألفاظ السَّهلة الرقيقة هو ما يمنح المقامة طابعها اللُّغويّ الخاصّ وبصمتها الفنيَّة الفريدة.

وعلاوةً على ذلك، فقد نضحت المقامة بزخمٍ تعبيريّ مُكثَّف، يتمثَّل في التراكيب اللُّغويَّة التي شكَّلت متن النصّ؛ إذ انتقى الشِّدياق تراكيب المقامة مراعيًا الإيقاع السجعيّ ومركزًا على قضيَّة الإبقاء على عنصر الازدواج في نهايات الجمل والعبارات، لضمان سلاسة النصّ وانسجام تراكيبه، وفي سبيل

(١) نفسه، ص٧٦.

(٢) نفسه، ص٧٢.

(٣) مثل: كميش، مظلوف، الرقين، الشَّطط، الأسنخ، وغيرها.

تحقيق ذلك كان لِزامًا عليه أنْ يتوسَّل بجملة من الأساليب من أبرزها أسلوب التكرار، الذي كان له حضورٌ كبير في نصِّ المقامة كقوله: "السَّفر السَّفر"(١)، "الوطر الوطر"(٢)، وغيرها من أساليب القسم والنداء والتعجُّب والدُّعاء...إلخ.

ولعلَّ أبرز أسلوب عصيٍّ على الإغفال هنا هو أسلوب السُّخريَّة، الذي مثَّل نواة العمليَّة النقديَّة عند الشِّدياق ومرتكزها؛ إذ عمد الشِّدياق لاستخدام السُّخريَّة كغطاء لتمرير نقده للسلوكيات الاجتماعيَّة التي واجهت مختلف شخصيَّات المقامة، وهي تقنيَّة حسَّاسّة تستوجب تعاملًا حذرًا وذكيًا لضمان نجاحها وتحقيق الغايَّة منها، وهو تمامًا ما فعله الشِّدياق؛ إذ مازج بين أسلوبيّ التَّهكم والسُّخريَّة بمرونة وسلاسة مكَّنته من إضفاء نوعٍ من الفكاهة للنصّ، ونقد عوار المجتمع وتعريَّة تناقضاته في الآن ذاته؛ لا سيَّما إذا ما وظَّفه في معرض حوار الشَّخصيَّات، مِمَّا يعني احتدام النقاش بينها وزيادة حدَّته، ومن ثَّمَّ تركيزًا على جوهر الخلاف وإعادة النظر في السلوك الاجتماعي المستهدف بالنقاش؛ أيّ دفع القارئ إلى مساءلته من خلال ما يدور أمامه من حوار بين الشَّخصيَّات، والشواهد في هذا الباب كثيرة منها قوله:

---

(١) م. ج، ص٧٢.

(٢) نفسه.

"قالت: إنَّ الخادم صَنَعَ شيئًا زائدًا على ما تعَيَّنَ عليه مِنَ الخدمة، فلا بُدَّ من مكافأته بنِعْمَة، قلت: وما هذه النِعْمَةُ النِقْمَة؟"(١)، "قلت: رُفِّيه وأتْحِفيه، وإنْ شِئْتِ فَقَرِّطيه أو شَنِّفيه"(٢)، "فإنَّ جيراننا كانوا بحَمْدِ الله تعالى، وببركاتِ دعاءِ امرأتي، أكثرَ مِنْ أنْ يَحْصِيَهُم قلمٌ ولِسَان"(٣)، وغيرها.

نُسَخ المخطوط:

أمَّا فيمَا يتعلَّقُ بنُسَخِ المخطوطِ فهُما نُسْخَتان؛ الأولى هي المقامة المَنْشُورة في مَجَلَّة "الجوائب" عام ١٨٦٨م بالعدد ٣٢٤، وقد أُعيد نشرها بعد ذلك في الجزء الأول من كتاب "كتر الرغائب"(٤) ما بين عامي (١٨٧١-١٨٧٢م)، وجاءَ في ختامِ هذا الكتاب:

"يقُول جامعه ومُلتزمُ طبعِه إلى هُنا تَمَّ جمع الفصول المُختلفة المَعاني والمباني، ولم يَكُنْ جَمعُها بحسب ترتيب إعدادِ الجوائب، ومِنها ما اختصر عن الأصل اختِصارًا لم

(١) نفسه، ص٧٨.

(٢) نفسه، ص٧٦.

(٣) نفسه، ص٧٨.

(٤) سيُرمز لهذا المخطوط في التحقيق بـــ "م. ج".

يُخِل بالموضوع، ويَليه الجزءُ الثاني المشتمِل
على الجُمَل السياسيَّة، إن شاء اللهُ تعالى".

وتبدأ المقامة في كتاب "كتر الرغائب" من صفحة ٧٠ وصولًا إلى صفحة ٨١؛ أي أنَّها جاءت في اثنتي عشرة صفحة، كُتِبَت سطورها باللون الأسود، وقد استُعِينَ بهذا المخطوط في إثْبَاتِ مَواطِنِ الاختلاف بينهُ وبين النُّسْخَة الحَجَريَّة، التي اعتُمِدَت في هذا العمل على أنَّها الأصل.

أمَّا النُسْخَةُ الحَجَرِيَّة، التي اعْتُمِدَت أصلًا، فهي النُسْخَةُ المُترجَمةُ للفرنسيَّة، وقد وقف على ترجمتها الـــمُتَرْجِمُ العسكري[1] M.Arnaud، ونُشِرَت عام ١٨٩٣م عن مطبَعَةِ فونتانا بالجزائر، وهي موجودةٌ في موقع المكتبةِ الوطنيَّة الفرنسيَّة، وقد جاءت هذه النُسْخَةُ في ثلاثَةٍ وعشرين صفحةً، بحيث أعْقَبَت كُلَّ صفحةٍ عربيَّة أخرى بالفرنسيَّة، فجاء مجموعُ صفحات النَسْخَةِ ككُل ثمانِيَةً وأربعين صفحة. أمَّا غِلافُها وخِتامُها فقد جاءا على النحو الآتي:

---

(١)
Taieb, Lebbaz: La résistance des Ouled Nail après 1847 "selon les écrits d'Arnaud, interprète militaire dans "La Revue africaine. 2021, Dirassat & Abhath, The Arabic Journal of human and social sciences, Vol 13, No 2.

صورة الغلاف:

PRÉFECTURE D'ALGER
DÉPÔT LÉGAL
SA MAJESTÉ BAKCHICHE
OU
MONSIEUR POURBOIRE
Par AHMED-FARÈS
Traduction de M. Arnaud, interprète militaire).
المقامة البخشيشية
للعلامة المرحوم احمد فارس
موسس الجوايب
ALGER
IMPRIMERIE ORIENTALE, P. FONTANA ET Cie.
1893

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط:

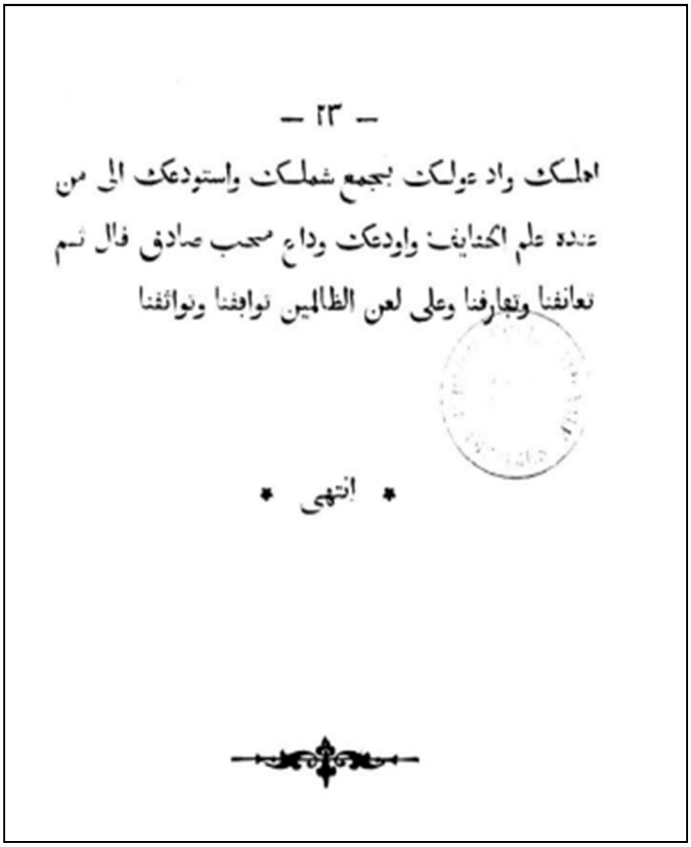

— ٢٣ —

اهلك واد عولك بجمع شملك واستودعك الى من
عنده علم الخفايف واودعك وداع صحب صادق قال ثم
تعانقنا وتعارفنا وعلى لعن الظالمين توافقنا وتوائقنا

* انتهى *

ما جاء في ختام الكِتابِ الذي يَضُمُّ نسخةَ مجلة الجوائب:

٢٩٥

* يقول جامعه وملتزم طبعه الى هنا تم جمع الفصول المختلفة المعاني *
* والمباني ولم يكن جمعها بحسب ترتيب اعداد الجوائب *
* ومنهـا ما اختصر عن الاصل اختصارا لم يخل *
* بالموضوع ويليه الجزء الثاني المشتمل *
* على الجمل السياسية *
* ان ساعد الله تعالى *

لايجوز طبع هذا الكتاب ولا ترجمته من دون اذن ملتزم طبعه

النَّصُ مُحَقَّقًا

الـمَـقَـامَـةُ البَـخْـشِـيْـشِيَّة

حَدّثَ أحَدُ السُّواحِ قال: قَدْ طَالَعْتُ في بَعضِ الصُحُفِ الجَامعةِ للأخبار مِمَّا يحدُث في الأمْصَارِ والأقْطَار، أنَّ في بَعْضِ المَمَالكِ مَلِكًا يُقالُ له: البَخْشِيش مُجدّ كَميش أَنيس بَشِيش، لا يُقْطَعُ أمرٌ دونَ أمره، ولا يُنَفَّذُ رأيٌ دون خَبَرِه، وإذا شَاءَ أنْ يُصَيِّرَ الحَقَ باطلًا فَعَل، أو البَاطِلَ حقًا أمْكَنَهُ العَمَل، فلا مَرَدَّ لحُكْمِه، ولا مُعَارض لرَسْمِه، وحَيثُما سَرَّحتَ النَّظرّ ألفَيْتَه أمَامَك، ومهما تَقْصِدُ مِنَ المَآرِب كانَ لا بُدَّ لكَ منْ أنْ تتَّخذه إمَامَك، وإنْ أكلتَ أو شَربتَ لَزِمَك أنْ تُصاحِبَه وتُرَاضِيه وتُجانبه، وإذا سَألكَ عَنْهُ أحدٌ وَجَبَ عليكَ أنْ تَسْرُد عليه أصلَه وفصلَه وشرفَه ونُبلَه، فإنْ تظاهرتَ بجهلِ شأنه، وأنكرتَ بطشَ سُلطانه، عَدَّكَ النَّاس مِنَ الحمقى، وقالوا: إنَّك معتوهٌ حَقًا.

وإذا سَمِعْتَ منْ يترنَّمُ بمديحِه وَجَبَ عليكَ أنْ تَقُولَ عند كُلِّ فقرةٍ: آمين، صَدقَ القائلُ الأمين، هذا إذا كانَ المدحُ نثرًا، فأمَّا إذا كانَ شعرًا، كانَ المفروضُ عليكَ أنْ تَثِب وتَطْفَر[1] فَرحًا وسرورًا، وتقول: ما رأيتُ كاليومِ

(١) الطَّفْرُ: أي الوثوب في ارتفاع، والطَّفْرَةُ: الوَثْبَةُ، يُقال: طَفَرُ المكان: أي الوثوب من فوقه وتخطِّيه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٤، مادة (ط ف ر)، ص ٥٠١، ومنه قول جمعة\خمعة بنت الخُس الإياديَّة في وصف أبغَضِ الخُيُول إليها: "أُبغِضُ السَّرِيعَ البُهْر(...) السِّكِّيتَ الطَّفْر"، ينظر: البغدادي، ابن طيفور (ت٢٨٠هـ): بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار

بشيرًا ونذيرًا!، إنَّه قد أطْرَبَ مني المَشَاعِر، وأنْبَأني بما يكونُ في الغَد، فنِعْمَ المُحَذِّر المُطَّلِع على السَّرائر.

ولقد اعتقدَ الناسُ بهذا الاسم الكرامات، وحَسِبُوه آيةً مِنَ الآيات، حتَّى إنَّهم كتبوهُ على جِبَاهِهِم واستفتحوا به، قال جَاهُهُم[1]: بل ربَّما اسْتَغْنَوا عَنْ مَجمُوعِ حُروفه بحَرفٍ واحدٍ يَدُلُّ على صُروفه، فكُلُّ باءٍ رَأيتَها على جِدارِ دارٍ فاعلم أنَّها أولُ هذا الاسم الشَّريف، فإذا حَفِظْتَ هذا فأنْتَ نِعْمَ العِرِّيف.

ومِنْ مَآثِرِه البَاهرة ومَحاسنه الظَّاهِرة أنَّه يُدني لكَ البَعيد ويُمَلِّكُكَ الجواريّ والعبيد، ويَجعَلُ لَهجَتكَ في المَجالسِ فَصيحةً، وطَلعَتكَ مع المُجَالسِ صَبيحةً، فإنْ كانت ذاتَ آثارٍ مِنَ الجدري سَوَّاهَا[2] ونَشَرَ[3] مِن فِيكَ الأرَجَ العَنبَريّ، فَكُلُّ عيبٍ مَعَهُ مستورٌ، وكُلُّ ذنبٍ بصُحبَته مغفورٌ.

فقلتُ في نفسي: تاللهِ إنَّ هذا المَلكَ غريبٌ، واسمُه أغْرَب، وهو في هَذا العَصرِ أجْدَرُ ما يُنَوَّهُ به مِنَ العَجَب، ويَتَشَوَّقُ إلى تَقَرُّبه مَنْ تَقَرَّب، وما

ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام، (١٩٠٨م)، تح: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، ص ٦٠.

(١) الجَاهُ: أي المترلة والقدر عند السلطان، يُقالُ: لفُلانٍ جَاهٌ فيهم أي مترلة وقدر، ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، مادة (ج و ه)، ص ٤٨٧.

(٢) م. ج، "سَوَّتْهَا"، ص ٧١.

(٣) م. ج، "نَشَرَتْ"، ص ٧١.

عِندَنا مِنَ المُلوكِ مَنْ يُضاهيه أو يُجاريه في مُلْكِه ويُحَاكيه، فإنْ هو إلَّا مَلِكٌ روحانيٌّ، وسُلطانٌ علويٌّ، ليسَ مِنَ النوعِ الإنسانيِّ، فكيفَ اختصَّت تلكَ البلادُ بهذهِ المَزِيَّة؟ فَفَضُلَتْ بها جميع البَرِيَّة، مع أنَّ بلادنا بحمد الله تعالى بلادُ عمرانٍ وتَمدنٍ وحَضارةٍ وتَفَنُّنٍ، وقد اخترعنا في هذه السِّنين من الآلات والأدوات ما لم يَكنْ يَخطُرُ ببالِ أحدٍ ممَّن فَات، حتَّى كِدْنَا أنْ نخترع آلةً تُوصِل إلى أفواهِنَا الطعَامَ والشرَاب، وأنْ تَكْتُبَ عنَّا الكتابَ لِكَلَّا[1] تَتْعَبَ أيدينَا اللطيفَة مِنَ الحَركةِ العَنيفَة، وكِدْنَا أنْ نَرى بلا عَينَين، ونَسمَع بلا أُذُنَين، وأنْ تَخْضَعَ لنا الريحُ والبحرُ ببواخرَ مَوَاخِر وأيَّ مَخْر[2]، فإمَّا أنْ تكونَ تلكَ الصُحُفُ كاذبةً، أو أنَّ الحَقَائق لم تَزَل عنَّا غائبةً.

قال: وكانَ عندي كتابٌ في أسمَاءِ المُلوكِ الغَابِرين والحَاضِرين، والعُلَمَاءِ والصَّالحين والخَيِّرين، مُرَتَبَةً على حُروفُ المُعجَم، ومُفصَّلَةً تفصيلًا يَدْرِيه الأعجمُ، ويَفْصَحُ بِه الأبكَم، فأخذتُ الكِتَاب وبَحثتُ في بابِ البَاء مِنْهُ عَنْ هذا الاسمِ العُجَاب فلم أجِدهُ فيه، لا في مَتْنِه ولا في حَوَاشِيه.

---

(١) م. ج، "لكَيْلا"، ص ٧١.

(٢) مَخْرُ السَّفينَة: أي استقبال الرِّيح بها، ومنه قول الفراهيدي: "مَخَرْتُ السَّفينَة مَخْرًا ومُخُورًا، فهي مَاخِرَةٌ، وهن مَوَاخِرُ، إذا اسْتَقْبَلْتَ بها الرِّيح"، ينظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ)، العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ج٤، ص٢٦١.

فقلتُ في نفسي: إنِّي بحمد الله ممَّن يُطيقُ السَّفَر، وعندي فيه رفيقٌ مِنَ الأصفر[1]، وهذا وقتٌ تطيب فِيهِ الأسفارُ في البِحَار، وما ورائي عَوَائِقُ وأشغَال، مِنَ الأهلِ والعِيَال، فَمَا لِي لا أقْصِدُ تلكَ البلاد التي احتَوَت على هذا العَجَب؟ وهو عند البَاحِثِين عَنِ الغرائب غايةُ الأرَب، فإذا تحقَّقت هذا الأمر عيانًا، وأمكَنَ لي أنْ أُقِيمَ على صحَّته بُرهانًا، رجعتُ إلى وطني، وألَّفتُ فِيهِ سفرًا كبيرًا، وزِدتُه في الشَّرحِ تحبيرًا، وذلك يُكسبُنِي كُلَّ ما أنفقتهُ مِنَ المَال لأجله، ويَرُدُّني إلى قومي فائزًا بِمَعرِفة أصله، فأُفِيدُهم الخَبَرَ اليقين، وأكون بينهم في عِدادِ المحقِّقين، فَضلًا عن كَسْبِ الرَّقِين[2].

ومِنَ العَادَةِ عندَنا أنَّا لا نَأْسَفُ على بَذلِ مالٍ في الحَال، إذا كانَ يُفِيزُنَا[3] بالآمالِ في المآل، فالسفرَ السفرَ، والوطرَ الوطرَ، فقمتُ في الحَال

(١) الصُّفْر: أي النحاس الجيد، أو الذهب، ومنه قول ابن الأعرابي(ت٢٣١هـ):
لا تُعجِلاها أنْ تَجُرَّ جَرّا تَحْدُرُ صُفْرًا وتُعَلِّي بُرًا
ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٤، مادة (ص ف ر)، ص ٤٦١.

(٢) الرَّقِينُ، بفتح الراء ورفع النون: الدرهم، يُقال: إنَّ الرَّقين تُعَفِّي على أَفْنِ الأَفِينِ؛ أي أن المال يُغَطِّي العيوب، ينظر: ابن منظور: لسان العرب: ج١٠، مادة (ر ق ن)، ص ٣٧٦.

(٣) أفاز: أيّ أنال، ينظر: ابن منظور: لسان العرب: ج٥، مادة (ف ي ز)، ص ٣٩٢.

إلى متاعي فَعَكمْتُه[1]، وإلى همياني[2] فَأفْعَمْتُه[3]، وركبتُ في باخرةٍ ماخرةٍ كأنَّها صرحٌ، تشرحُ الصَّدر بحُسنها وأيّ شرح، فَسِرنا ذلكَ اليوم بريحٍ طيبةٍ، ولي مِنَ الأماني رفقةٌ محسبة، حتَّى وصلنَا إلى مرفأ قاعدةِ تلكَ البلاد التي مَرَّ حُلوُ ذِكرها، وسبقَ التَنويهُ بِفَخرِها، فَكِدْتُ أنْ أطيرَ فرحًا بحصولي على هذا الأمَل، وحَمِدتُ اللهَ عزَّ وجلّ.

وفي الحَالِ أطَافَت بباخرتنا زوارقُ كثيرة لنَقلِ الرُكَابِ إلى البرّ، وهي العَادةُ في كل بَلدٍ لهُ شأنٌ[4] يُذكَر، وكانَ كُلٌّ مِنْ أصحابِ هذهِ الزوارقِ يُشيرُ إليَّ بالركوبِ مَعهُ، وبأنَّه أكثرُ مِنْ غيرِه قَناعةً وأوفرَ دَعَةً، فاخترتُ واحدًا وقلتُ له: ليسَ لي مِنَ الأحمالِ ما يُثقِلُ زورقك، أو تقول أنَّهُ أكَدَّكَ[5] فأعرَقَك، أو ثَبَّطَك فعَوَّقك، فكم تريدُ مِنَ الأجرِ على نقلي إلى

(١) عَكَمَ: عكم المتاع يَعْكِمُه عَكْمًا: أي شَدَّهُ بِثَوبٍ، وهو أن يبسطه ويجعل فيه المتاع ويَشُدَّه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٢، مادة (ع ك م)، ص ٤١٥.

(٢) همْيان، بكسر الهاء: يُقال للذي يُجْعَلُ فيه النفقة ويُشَدُّ على الوَسَطِ، همْيانُ الدراهم: أي الذي تُجعَلُ فيه النفقة، والهِمْيانُ دخيلٌ معَرَّبٌ، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٣، مادة (ه م ي)، ص ٤٣٧.

(٣) أَفْعَمَهُ: أي ملأَهُ وبَالَغَ في مَلْئِه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٢، مادة (ف ع م)، ص ٤٥٥.

(٤) م. ج، سقط تنقيط حرف الشين "سأن"، ص٧٢.

(٥) أَكَدَّ: أي أجهد، يُقال: أكَدَّ نفسه؛ أي أجهدها، ينظر: معجم الدوحة التاريخي، مادة (ك د د)

البَرِّ؟ قال: عشرين قرشًا[1]، قلتُ: هذا كثير، قال: بل شيءٌ يَسير، قلتُ: أعطيكَ نصف هذا المِقدَار ولا تَكُ بالثرثار، قال: هذا استفتَاحٌ فاركَب، والبَركةُ فِيمَا أكْسَب، والله يُحِبُ مَنْ كسب، ومَنْ طَمِعَ باءَ بأسوأ مُنقَلَب، وغير ذلك مِنَ الأمثالِ مِمَّا يَستَعمِلهُ أهلُ الاحتِرَافِ على العِيَال، فَرَكِبتُ مَعه.

فلمَّا أوصلني إلى البَرِّ أدَّيْتُ إليه العَشرة وقلتُ: دونكَ الإجَارَةُ المُقَرَّرَة، فقال: قد بَقِي بَخْشِيش الزورقِ لِيَتِمَّ الأَنَقُ[2]، قلتُ: ما معنى البَخْشِيش بَعدَ تَعيينِ مِقدَار الأجَر؟ قال: هو خاتمةُ الأعمالِ، وبه يَحْصُل لكَ تمامُ الأجْر، قلتُ: أنا درويشٌ لا يَجِبُ عليَّ بَخشِيش، فألَحَّ وألْحَفَ[3]، ولَجَّ وحَلَف، فأعطيتُهُ بعض فلوس وقلتُ: خُذها لا بارِكَ الله لكَ فِيها، فانْصَرف.

(١) م. ج، سقط تنقيط حرف الشين "قرسا"، ص٧٢.

(٢) الأَنَقُ: أي الفرح والسرور، ينظر: الجوهري، أبو نصر (ت٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: تح: أحمد عبر الغفور عطار، (١٩٨٧م)، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ج٤، مادة (ء ن ق)، ص٤٤٧.

(٣) أَلْحَفَ: أي أَلَحَّ، ينظر: الرازي، زين الدين (ت٦٦٦هـ)، مختار الصحاح: تح: يوسف الشيخ محمد، (١٩٩٩م)، ط٥، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت، مادة "ل ح ف"، ص٢٨٠.

ثُمَّ ازدَحَمَت عليَّ الحمَّالون وهم ضَاجُّون[1]، فَكَأَنَّمَا هُم مِنْ بلاءٍ هَارِجُون[2]، وكان كُلُّ واحدٍ منهُم يُنازِعُني مَتاعي ويجذِبُني بذراعي ويقول: أنا أعْرِف مترلًا للمسافرين يَليقُ بِحَالِك، وأنا الذي أحمِلُ أثقالَ الوُجوهِ والكبراءِ كأمْثَالِك، إلى أنْ اخترتُ واحدًا منهم بَعدَ إغْضَابِ البَقيَّة، وحَمَلْتُهُم على أنْ سَلَقُوني بألسنَةٍ حِدادٍ على السويَّة، ودَعَوا عليَّ وعلى كُلِّ مُسافرٍ مِثلي، ونعوا على اختِيَارِي للرجُل، وقالوا: إنَّه مِنْ ضربي وشكلي، ولولا ذلك لما اخترتهُ وفضَّلتُهُ عَليهم، وآثرتهُ فتحمَّلتُ أذاهم، وجعلتُ كأنِّي لَمْ أسمَع بذاهُم.

ثُمَّ احْتَمَلَ الرجلُ مَتَاعي كالعِجْلَة، وأقبَلَ يَعدُو كالظِّلِّيم[3]، بَل أشَدَّ منه عَجَلَةً، حتَّى وصلتُ إلى المترلِ المعهود، وَوِرْدِ الراحةِ المورود، فأدَّيتُ إليه أجرَهُ وافيًا[4]، وظَنَنتُ أنَّه كانَ لهُ كَافيًا، وإذا به يقول: قَدْ بَقِي البَخْشِيش،

---

(١) ضَاجَّ: بتشديد الجيم، يُقال: ضَاجَّهُ؛ أي شاغبه وشارَّه، ينظر: الحميري، نشوان (ت٥٧٣هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: تح: حسين بن عبد الله العمري وآخرون، (١٩٩٩م)، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ج٦، ص٣٩٠٥.

(٢) الهَرْجُ: أي الكثرة في المشي والاتساع، يُقال: هَرِجَ الرجل؛ أي أخذه البُهْرُ من حَرٍّ أو مشي، والبُهْرُ هو انقطاع النفس من الإعياء ونحوه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٢، مادة (ه ر ج)، ص ٣٨٩.

(٣) الظِّليم: أيّ الذكر من النعام، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٢، مادة (ظ ل م)، ص ٣٧٩.

(٤) سقطت كلمة "وافيًا" في نَصِّ النسخة الحجرية ولم يظهر منها إلا آخرها، ص٨.

كُفيتَ التحريش، قلتُ: إنَّ صَاحبَ الزَورَقِ إنَّمَا طلبَ البَخْشِيش لقَاربِه لا لغَارِبه[1]، وأنتَ فما دعواكَ وما حُجَّتُكَ وما أغواك؟ قال: هي عَادَةُ البلد لا يَسْتَنْكِفُ منها أحدٌ، فإنَّ العادةَ إذا عَمَّت صارت فرضًا لازمًا، وحقًا واجبًا فما تَجِدُ لها أحدًا عائبًا، وما أخَالُك ممَّن يَجهلُ حُكمَ العَادات، وإنّي أراكَ من ذوي الشارات، فرأيتهُ مُستَعدًا للإسْهَاب، وأنَّه مِنْ دُهاةِ النَّاس في الجَواب، فَلَم يَسعني إلا نَقدُهُ البَخْشِيش زيادةً على الأُجْرَة، وقُلتُ: اذهب كمَا جئتَ وقُل ما شئتَ، فَدَعَا وأثْنَى وقال حسنًا.

فأدْخَلَ خَادِمُ المَنْزِلِ حَاجَتِي إلى إحْدَى الحُجرات، فَرأيتُ أنْ قَدْ مَضَى عَليَّ مُنْذُ خُرُوجِي مِنَ البَاخِرة ستُّ سَاعَات، فَأحْسَسْتُ بالتَّعب، فَطَلَبْتُ مَطْعَمًا يَكْسِرُ عَني سَوْرَةَ السَّغَب[2]، فَأكلتُ وشَربتُ وحَمدتُ الله تَعَالى وطِبْتُ نَفْسًا وحَالًا.

ثُمَّ صِحْتُ بالخَادِمِ الذي أحْضَرَ إليَّ الطَّعَام وهو كَهْلٌ، ولكنَّهُ يَتَكَلَّفُ أفْعَال الغُلام، فَقُلْتُ: كَمْ ثَمَنُ الإدام[3]؟ قَال كَذَا وكَذَا، فَنَاولتُه إيَّاه

(١) الغَارِبُ: أي الكاهل، وقيل: غارب كل شيءٍ أعلاه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١، مادة (غ ر ب)، ص ٦٤٤.

(٢) السَّغَبُ: أي الجوع، وقيل: هو الجوع مع التعب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١، مادة (س غ ب)، ص ٤٦٨.

(٣) الإدام: أيّ مَا يُؤْتَدَمُ بِهِ مَعَ الْخُبْزِ، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٢، مادة (ء د م)، ص ٩.

وتَحرَّكْتُ للقيام، فَأخَذَهُ وقَال: قَدْ بَقِيَ البَخْشِيش، فَاتحة الآمَال، وخَاتمَة الأعْمَال، فَقُلتُ: أ ليسَ لكَ أُجرةٌ مَعلومةٌ في هذا المَكَان؟ قَال: بَلى ولكِنَّهَا عَادَةُ أهلِ الإحْسَان، بَل كل إنسان، وإنَّ العَادَة كمَا يُقال خَامس طَبِيعَة، ومَتى عَمَّت شَرُفَت وإنْ كَانَت وَضِيعَة، قال: فَرَأيتُه مُستعدًا للزيَادة مِنَ المَقَال، والعَمْدِ إلى الاسْتدلال، فَأعطَيتُه ما أرضَاه، وسَدَدْتُ به فَاه.

ثُمَّ رأيتُ أنَّهُ يَلزَمُني شِراءُ زوجين مِنَ النِّعَال، وبعض ثِيَابٍ مِمَّا لا بُدَّ مِنْهُ في الحَال، فدخلتُ دُكَانَ حَذَّاء، فَقُلتُ: كَم ثَمنُ هذا الحِذَاء؟ قال: بمئتي قِرشٍ على التَّمَام، مِنْ دونِ جِدَالٍ ولا خِصَام، فَإنِّي لسْتُ مِنَ القومِ الذين يُجادِلونَ في البَيْعِ والشِّرَاء، ولو أطمَعَنِي في الثَّرَاء، قلتُ: هذا إشْطِاط[1]، قال: لا، بل هو إقسَاط، قلتُ: مئة وخمسون، قال: ما أنتَ بالزَّبُون، قلتُ: مئة وستون، فَفَكَّر ثُمَّ قال: استفتاح، فإنْ فَوَّتَه إنِّي إذًا لَفِي صَفْقَةِ المَغْبُون، فَسَلَّمتُ إليه الثَّمَن.

وأردتُ الخُروجَ مِنَ الدُّكَان، فاعْتَرَضَنِي بَعْضُ الغِلمَان وقال: أيُّهَا الكريمُ الهَشيشُ قد بَقِيَ البَخْشِيش، وهي عَادةٌ مَعروفةٌ في جَمِيع الدَّكَاكِين،

(١) الإشْطَاط: أي الجَوْرُ والتباعد عن الحق، يُقال: أشْطَطْتُ؛ أي جُرْتُ، ينظر: الفراهيدي، العين: ج٦، ص٢١٢. وينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٧، مادة (ش ط ط)، ص ٣٣٤.

وأنْتَ بالخَيرِ قَمِين[1]، قال: فَرأيتُه مُستعدًا للإكثار، والتمَادي في هذا المِضْمَار، فأعْطَيتُه قِرشًا فاسْتَقَلَّهُ وطَلَبَ المزيد، وَوَجْهُهُ أصْلَبُ مِنَ الجُلْمُود، ولسَانُه أذْرَبُ[2] مِنَ الحديد، فَلَمْ أرَ بُدًا مِنْ إسكاته، وتجنُّبِ هناته[3]، فَقَد رَأيتُ الغُلامَ مِنْهُم في الطَّلَبِ كَهْلًا، وإنْ يَكُنْ الشَّيْخُ مِنْ بينهم في الفَهْمِ طِفلًا، فتَعَجَّبْتُ مِنْ سَلاطَة ألسنَتِهِم مع خُمُودِ فِطْنَتِهِم، وكأنَّ ذلكَ قاعدةٌ مطَّرِدة في كل مكان، وشأنٌ معلومٌ عند ذوي العِرفَان، وهو أنَّك حيثما رأيتَ إنسانًا ذَرْبَ اللِّسَان فاحكم عليه بِكُلُولِ الجَنَان.

ثُمَّ إنِّي انْتَبْتُ عدةَ دكاكين مُختلفة، فألْفَيْتُها كلها على تلكَ الصِّفَة؛ أعني أنَّ صاحبَ الدُكانِ يَطْلُبُ في بياعته ضِعْفَيّ القِيمَة، ومَنْ عِنْدَهُ مِنَ التَلامِذَة يطلبون البَخْشِيش عَقِبَ السِّيمَة[4]، فأخذتُ أفَكِّرُ في هذه الحَال،

---

(١) القَمِينُ: أي الجدير بالشيء والخليقُ به، يُقال: هو قَمِنٌ بكذا؛ أي حَرِيٌّ به، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٣، (ق م ن)، ص ٣٤٧.

(٢) الذَّرِب: أيّ اللِّسان الشتَّام الفاحش، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١، مادة (ذ ر ب)، ص ٣٨٦.

(٣) هَنَةُ الشخص؛ أي كلماته وأراجيزه، ينظر: معجم الدوحة التاريخي، مادة (ه ن و)، ومنه ما جاء في حديث نبوي: "قال يخاطب الرَّاجز في مسيره إلى خيبر: انزل يا ابنَ الأَكْوَع، فحُذ لنَا من هَنَاتِك"، ينظر: البيهقي، أبو بكر (ت٤٥٨هـ)، السنن الكبير: تح: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، (٢٠١١م)، القاهرة، ط١، ج٧، ص٣١٧.

(٤) السِّيمَةُ؛ أي عرض السلعة على البيع، يُقال: سامني الرجل بسلعته سومًا؛ وذلك حين يذكر لك هو ثمنها، والاسم من جميع ذلك السِّيمَةُ، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٢، مادة (س و م)، ص ٣١٠.

وحينئذ[1] تَبَيَّنَ لي قول مَنْ قال: إنَّ البَخْشِيش مَلِكٌ مُطَاع، وآمِرٌ يَحِقُ له الإتِّبَاع، فقلتُ في نفسي: ألا قاتلَ اللهُ الإخباريين، وما جاؤوا به مِنَ الإفْكِ المُبِين، ما الذي حَمَلَهُم على هذا التَهكُّمِ السَّخِيف والمَجَازِ الكَثِيف؟ فهو الذي أتَى بي إلى هذهِ الديار ليَغْبَنِني كُلُّ مِهْذَارٍ ثَرثَار، ويَتَقَاضَانِي البَخْشِيش كُلُّ ذِي شَنَار[2]، فما هذه الدارُ وما هذا العار؟

وقَدْ لَحِظْتُ مِنْ هؤلاء البَاعَة مِنْ بعض ما عُرفوا به مِنَ الفَظَاعَة، أنَّهُم لا يبيعونَ الشَّاري في وجْهِه، بل في قفاه؛ أعني أنَّهُم متى تَوَلَّى عنهم فحينئذ يرضونَ بمقدار ما أدَّاه، ومادامَ لهم مواجهًا، ويُخاطبهم مشافهًا فإنَّهم يُولُونَه الإعراضَ والنُّفُور، ويَنْسِبُونَهُ إلى الجَهلِ والغُرور، ويقولونَ له: إنَّك لم تَرَ في عمرك قَطْ مثل هذه السِّلعَة، ولهذا تَجْهَلُ ثمنها، وإنْ كُنتَ ذا سعة لكُنَّا نراك معدمًا سمجًا، إذ لسنا نرى وراءك من يحمل خرجًا، وما أشبه ذلك مِنَ الكلام الذي لا يتفوهُ بِهِ إلا الطَّغام[3].

---

(١) م. ج، سقطت هذه الكلمة و لم يثبت منها إلا حرف الحاء "ح"، ص٧٤.

(٢) الشَّنَارُ: العيب والعار، أو ما اتصف بالشناعة والقبح، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٤، مادة (ش ن ر)، ص ٤٣٠.

(٣) الطَّغامُ؛ أي أراذل الناس وأوغادهم، يُقال: الطَّغَامَةُ من الأشخاص؛ أي الرَّذْلُ الوَغْدُ منهم، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٢، مادة (ط غ م)، ص ٣٦٨.

ثُمَّ إنِّي بينما كنتُ على حالة التَحزُّنِ والتَفكُّرِ والتَفكُّن[1]، إذ لقيتُ أحد مَعارفي المُوسِرين[2] المُياسرين، وكنتُ أحسبُه مِنَ الغَابِرين، فَفَرِحتُ بِمَرْآهُ فرح العَلِيلِ بالطَبِيب، أو المُحبِ بالحَبِيب، وشَكَوتُ إليه ما قاسيته من شَطَطِ[3] التجار عَنِ الحق، وابتدأتُ بقصتي منذ ركوبي في الزورق، فقال: أمَّا التجار فالقاعدةُ هنا أنَّ مَنْ سَاوَمَهُم في شيءٍ لا يعطيهم إلا نِصْفَ الثمن، وهو دَأبُ أهلِ الوطن، وهو عندهم غير مُسْتَهْجَن، وأمَّا الغرباء فربما غَلَبَ عليهم الحياء فأدَّوا أكثر من النصف، فيُغْبَنُون، ثُمَّ يعودُون ولا يعبؤون.

وأمَّا البَخْشِيش فلعنهُ الله، فإنَّهُ أخربَ بيتي، وألجأني إلى بيعِ أثاثي وفِراشي وجهازي ورِيَّاشي[4]، حتى أصبحتُ صفر اليدين، جاحظَ العينين، إذا ذكرتهُ اضْطَرَمَت مِنْهُ في القَلبِ جمرةٌ، وبُؤتُ بلوعةٍ وحَسْرَة، وإنِّي الآن لاعِنُه وسألعَنُه ما دام بي رَمَق، وما تعاقبَ الغسق والشفق.

---

(١) التَفَكُّن: أي التَندُّمُ على ما فات، وتَفَكَّنَ أي تأسَّف وتلهَّف، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٣، مادة (ف ك ن)، ص٣٢٤.

(٢) المُوسِر؛ أي الغني أو حاضر النقد، ينظر: الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: ج٥، ص٢٨١٦.

(٣) الشَّطَطُ؛ أي الجور ومجاوزة الحد، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٦، مادة (ش ط ط)، ص ٢٥٧.

(٤) الرِّيَاش: ما يكون لدى المرء من اللباس الحسن والمتاع والمال، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٦، مادة (ر ي ش)، ص ٣١٠.

وقد حَرَّمتُ على نفسي أنْ أقولَ عند استعظام شيءٍ: بَخٍ، لِئَلا يُذَكِّرَني هذا الحرف الأسْنَخ[1]، الأقَذَرُ الـــمُنْكَر، الأدْهَى الأمَّر، الـــمَشْؤُومُ طَائِرُه، الـــمَذْمُومُ ذَاكِرُه، هادم البيوتِ المعمورة، وفاضح العيالِ المستورة، الذي أغرى اللؤماءَ الأراذل بالكرماءِ الأفاضل، نَعَم هو الذي صَيَّر بيتي بَلقعًا[2]، وأجرى مني أدمُعًا، وتركَ كيسي فارغًا مِنَ المال، وبالي ممتلئًا من البَلْبَال[3]، فوالله الذي أمرَ عبادهُ بالعمل، ونهاهُم عَنِ البطالة والكسل، ما شتَّتَ شملي، وأعْدَمَني رَحْلي، إلَّا البَخْشِيش الملعون، فَالعَنُوه أيُّها اللاعنون.

قال الراوي: فرأيتهُ أنْ قد استَنَّ في مجالِ اللَّعْنِ والسب والطعن، فأردتُ أنْ أُسْكِنَ مِنْ غضبه، وأُصَبِّرَهُ على سَلْبِه، فقلتُ له: مهلًا مهلًا،

---

(١) السَّنْخُ: أيّ الأصل من كل شيء، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٣، مادة (س ن خ)، ص ٢٦.

(٢) البَلْقَعُ؛ أي الأرض القفر التي لا شيء بها، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٨، مادة (ب ل ق ع)، ص ٢١.

(٣) البَلْبَال: أي شدَّةُ الهَمِّ والوسواس في الصدور وحديث النفس، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١١، مادة (ب ل ب ل)، ص٦٩. ومنه قول الـــمُهَلْهِل:

يا لَقَوْمِي لِلَوْعَةِ البَلْبَالِ وَلِقَتْلِ الكُمَاةِ والأبْطَالِ

ينظر: التَّغْلِبِيّ، المُهَلْهِل عَدِّيّ بن ربيعة بن الحَارث (ت٥٣١م)، ديوان المُهَلْهِل: (١٩٩٥م)، ط١، تحقيق: أنطوان القوّال، دار الجيل، بيروت، ص ٧١.

واكظم الغيظَ فهو لك أولى، فقال: ألا تسمع مني وتروي عني؟ قلتُ: قُل، قال: إنِّي سكنتُ مع أهلي في مَحَلَّة[1]، وكُنَّا بحمد الله تعالى في أحسن بُلَّة[2].

فلمَّا كان اليوم الثاني تزوجَ بعض الجيران، فقالت زوجتي: قد وَجَبَ علينا البَخْشِيش للعروسين، وإنْ هما إلا اثنان، قلتُ: وما البَخْشِيش هداكِ الله؟ فما أراه إلا فُضولًا منك بلا اشتباه، قالت: إنْ لم نُهْدِ إليهما هديةً فقد عَرَّضنَا أنفسنا للبَلِيَّة، ولَزِمنا أنْ نخرج مْنَ المَحَلَّة بِضَعَةٍ وذِلَّة، فقلتُ: اصنعي ما هو واجب، وقَانَا الله مِنَ المَعَايِب، فذَهَبَت إلى السوق، واشترت مِنَ المتاع ما يَشُوقُ ويَرُوق، ثُمَّ حَمَلَتْهُ إلى العروسين، وهي قَرِيرَة العين.

فلمَّا كان اليوم الثالث، وُلِدَ لبعض جيراننا ولد، فقالت امرأتي: قد وَجَبَ البَخْشِيش، وما عنهُ مُحيد ولا مَرَد، قلتُ: أنتِ أدرى بما يَجِبْ، وإنَّ قلبي من درايتك يَجِبْ، فَفَعَلَت كما شاءت، وسارت للتهنئة بالهَدِيَّة ثُمَّ جاءت.

---

(١) المَحَلَّةُ؛ أي المنزل ودار الإقامة، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٨، مادة (ح ل ل)، ص ١٠٢.

(٢) البُلَّةُ؛ أي الخير، ينظر: معجم الدوحة التاريخي، مادة (ب ل ل)، ومنه قول النعمان بن بشير الأنصاري (ت٦٥هـ):

إذا يُوسِرُون فلا يَبْطَرُون ويومَ البَلاءِ كِرامُ البُلَلْ

ينظر: شعر النعمان بن بشير الأنصاري: تح: يحيى الجبوري، (١٩٨٥م)، درا القلم، الكويت، ط٢، ص١٠٤.

فلمَّا كان اليوم الرابع قالت: إنَّ أحد جيراننا قد خَتَّنَ غُلامه، ومدَّ طعامه، فلا بُدَّ مِنْ حمل الهديَّة إليه، وتقديمها بين يديه، فقلتُ: احْمِلي احْمِلي، فها هو السوقُ قريبٌ منك فأجزلي، فَقَضَت المرسوم، وآبت بالثناء الـــمَرُوم.

فلمَّا كانَ اليومُ الخامس قالت: إنَّ أحد أولاد الجيران قَدْ خَتَمَ القرآن، فلا بُدَّ مِنْ إتْحَافِه بتُحْفَة، وإطرافِ أهله بِطُرفَة، قلتُ: شأنك[1] والصِّلات وتَتَبُّعِ الكائنَات.

فلمَّا كان اليوم السادس قالت: إنَّ أخا ذلك الصبي قَدْ أحرزَ في المكتب سِمةً تَدُلُّ على أنَّهُ ذكي غير غبي، قلت: رُفِّيه[2] وأتْحِفِيه، وإنْ شِئْتِ فَقَرِّطِيه أو شَنِّفِيه[3].

فلمَّا كان اليوم السابع قالت: إنَّ جارتنا ذهبت إلى الحَمَّام بعد النفاس، وأنت أدرى بِعَادَة النَّاس، قلتُ: لا، بل أنتِ الدَّارِية، وعندَكِ أخبار كُلِّ غادِيةٍ وسارِية، فاصنعي بدرايتك، وأظْهِري سِرَّ سراوتك.

---

(١) م. ج، سقط تنقيط حرف الشين "سأنك"، ص٧٦.

(٢) رَفَّ؛ أي أحسن إلى، يُقال: رَفَّ الرجلَ، يَرُفُّهُ رفًا؛ أي أحسن إليه وأسدى إليه يدًا، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٩، مادة (ر ف ف)، ص ١٢٧.

(٣) الشَّنْفُ: الذي يُلبس في أعلى الأذن، والذي في أسفلها القُرْطُ، وقيل الشَّنْفُ والقُرْطُ سواء، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٩، مادة (ش ن ف)، ص ١٨٣.

فلمَّا كان اليوم الثامن قالت: إنَّ إحدى جاراتنا قَدْ خُضِّبَت بالحناء، وتهيأت للإرْنَاء[1]، وقد جَرَت العَادَة، فابْتَدَرْتُ وقُلت: بأنْ تُحَلَّى بِقلادَة، قالت: إنْ لم تكن قِلادَة فَخَاتمًا، والمال يَفْنَى وابقَ أنتَ سالمًا، قلتُ: بل إنَّني أرى نفادَ جلدي ومُهجتي قبل نفادِ سبدي[2]، قالت: إنْ لم تَجُدْ بالمال هذه[3] المَرَّة، صِرنا لدى جيراننا مَعَرَّة[4]، فقلت: شأنك وتحلية الأصابع، فأنتِ أدرى بالطبائع.

فلمَّا كان اليوم التاسع قالت: إنَّ أحدَ جيراننا قَدِمَ مِنَ الحَجِّ بعد قضاءِ العَجِّ والثَّجِّ[5]، والعَادَةُ في مثل هذا المقام، فابْتَدَرْتُ وقلتُ: بأنْ يُقابَل بالإكْرَام، قالت: وبشيءٍ مما يُباع ويُشْرَى، إنَّه كانَ عند ربكَ برًّا، فقلتُ: أنتِ أدرى الوَرَى بما هو أحْرَى، وبِمَا يُكْسِبُ الثَّنَاء والذِّكْرَى.

---

(١) الإرناء: الفرح والمرح والنشاط، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٣، مادة (أ ر ن)، ص ١٤.

(٢) السَّبَدُ؛ أي المال والكسب، ينظر: لسان العرب: ج٣، مادة (س ب د)، ص ٢٠٢.

(٣) م. ج، "هذي"، ص٧٦.

(٤) رجلٌ مَعِرٌ: أيّ بخيل قليل الخير، ينظر: لسان العرب: ج٥، مادة (م ع ر)، ص ١٨١.

(٥) العَجُّ؛ أي العجيج في الدعاء وأن يجهر المُلَبِّي بالتلبية، والثَّجُّ؛ أي سيلان دماء الهَدْيِ والأضاحي، سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الحج فقال: "أفضل الحج العَجُّ والثَّجُّ"، ينظر: الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت٢٧٩هـ)، سنن الترمذي: تح: بشار عواد معروف، (١٩٩٦م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ج٢، ص١٧٨. وينظر: لسان العرب: ج٢، حرف الجيم، فصل الثاء، ص ٢٢١.

فلمَّا كان اليوم العاشر قالت: إنَّ أحدَ الجيران قَدِمَ مِنْ سفر، وكانَ أهْلُهُ يَحْسَبُونَهُ أنَّه ممَّن غبر، إذ طال غيابه ولَمْ يُرْجَ إيابُه، فالليلة أحضروا آلات الطرب، وتهيؤوا للتهنئات، وهي عَادَةُ العَجَمِ والعَرب:

وما أَخَالُ أَحَدًا ذَا رُشْد ... يَأْنَفُ مِنْ جَمْعِ كُنُوزِ الحَمْد
الحَمْدُ كَنْزٌ لَيْسَ يَفْنَى أَبَدًا ... وَكُلَّمَا أَنْفَقْتَ مِنْهُ تلدا

فَقُلْتُ:

لا شَكَّ أنَّ الحَمْدَ كَنْزٌ بَاق ... يَزِيدُ أضْعَافًا عَلى الإنْفَاق
لَكِنْ أرَاهُ فَانِيًا عَنْ أُمَمٍ ... عِنْدَ فَرَاغِ الكِيسِ وَيْكَ فَاعْلَمِي

فَقَالت:

مَنْ كَانَ يَخْشَى مِنْ نَفَادِ الدِّرْهَمِ ... فَلَنْ يَحُوزَ الحَمْدَ عوض فَافْهَمِ[1]

فَقُلْتُ: أنتِ أدرَى بالحمدِ والمالِ والحَالِ والمآل، فدونكِ ما جَنَحْتِ إليه، وعَزِمْتِ عليه، فلمَّا كانَ اليوم الحادي عشر قالت: إنَّ جارنا قَدْ أَتَمَّ بناء دارٍ له، وهي أحْسَنُ ما رأت عيني مِنَ البِنَاء، وقد أتَى بالقُرَّاءِ والمُطْرِبين لإتْمَام الهَنَاء، وقد جَرَت العَادة بأنْ تُبادِرَهُ الجيران بما يلزم لها مِنَ الأثاث، وهي من العاداتِ المَأْلُوفَة التي لا يَتَطَرَّقُ إليها انْتِكَاث، فَقُلتُ: حسبنا الله

(١) الراجح أنَّ كُلَّ هذه الأبيات من تأليف الشدياق نفسه؛ إذ لا وجود لها في دواوين الشعر، وهي على بحر الرجز.

ونعمَ الوَكيل على هذا التَعْليل، أَ لَيسَ الذي يبني داراً بقادرٍ على تأثيثها وفَرْشِها من مِنَصتِهَا إلى نَفَشِهَا؟ (١).

فقالت: إذا كنت لا تعملُ بالعادات فعليك بِسُكْنَى الفَلوَات والخَلوَات، لا بِسُكْنَى المَحَلَّات، فَقُلتُ: يا امرأة هذهِ الحال تُفْضِي بنا إلى الخَراب، فنصبح أذِلَّاء عند الأصْحَاب، قالت: وأينَ أنتَ مِنَ الثواب؟ فإنه أَلْزَمُ لنا من الثياب(٢) والطعام والشراب، ثم كرَّرَتْ القول وأعادت، وصمَّمَت على ما أرادت، فقُلتُ: دونكِ ما عندنا من المَاعُون، فاصرفي بِه عَنَّا سُوءَ الظُنُون، قالت: لا، بل ينبغي أنْ يَكُونَ مِنَ السُوقِ جديداً لا عهيداً، فَقُلتُ: تاللهِ لم تُخْلَق مِنْكِ السَّاقُ إلا للسوق، فَدُونَكِ هذا المَشُوقُ(٣) المَعْشُوق.

فلمَّا كان اليوم الثاني عشر قالت: إنَّ الخادم صَنَعَ شيئًا زائداً على ما تَعَيَّنَ عليه مِنَ الخدمة، فلا بُدَّ من مكافأته بِنِعْمَة، قلت: وما هذهِ النِعْمَةُ

(١) النَّفَشُ: أي المَتاعُ المُتَفَرَّقُ، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٦، مادة (ن ف ش)، ص٣٥٧.

(٢) م. ج، سقط حرف الثاء "الياب"، ص٧٧.

(٣) المَشُوقُ من الأشياء؛ أي المعشوق الذي تشتاق النفس إليه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج١٠، مادة (ش و ق)، ص ١٩٢.

النِقْمَة؟ قَالَت: تَخْتٌ[1] مِنَ الثياب وفيه الأجرُ والثواب، فقُلتُ: لكِ ذلك وقانا الله مِنَ المهالك.

فلمَّا كان اليوم الثالث عشر رجعنا إلى الدور الأول؛ أي الزواج والولادة والختَان، فإنَّ جيراننا كانوا بِحَمْدِ الله تعالى، وببركاتِ دعاءِ امرأتي، أكثرَ مِنْ أنْ يَحْصِيَهُم قلمٌ ولِسَان، فقُلتُ: اسمعي أيتها المرأة وارشدي وانصفي واقصدي، إمَّا أنْ تَعِدِي عَنْ هذا الإنفاق، وعَنْ تكليفي ما لا يُطَاق، وإلَّا فالفِرَاق أو الطَّلَاق، فَأَبْرَقَت وأَرْعَدَت، وأوْعَدَت وتَهَدَّدَت، ودَعَت بالوَيْلِ والثُبُور على كل رَجُلٍ بَخِيلٍ وحَصُور[2]، فلم يَسَعْنِي إلَّا الفِرَارُ مِنَ الدَّارِ، والاسْتِتَارُ مِنْ مُرَافَعَتِهَا لي عند ذَوِي الاقتدار، فإنِّي أعلمُ عين اليقين أنَّ ضلعهم يكونُ معها، فأكُون مِنَ المُرهَقين، فهذه قِصَّتِي، وغَصَّتِي، ومِحْنَتِي، ونَغْصَتِي.

ولي قِصةٌ أخرى أَمَضُّ[3] من هذه وأفجع، وأَضَرُّ وأوْجَع، إنْ شِئتَ سردتها عليك، والأمر إليك، فقلتُ: إنْ كانت أنباءً عن عادات هذا البلد فهي مِنَّةٌ عليَّ أشْكُرُهَا لك مدى الأبد، فإنِّي أريدُ أن أعرفَ جميع هذه

---

(١) تَخْتٌ: لفظ فارسي، وقد تكلمت به العرب، ويعني الوعاء الذي تُصان فيه الثياب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٢، حرف التاء، فصل التاء المثناة، ص ١٨.

(٢) الحَصُور: أي المُمْسِك البَخيل الضَّيِّق، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٤، مادة (ح ص ر)، ص١٩٤.

(٣) الأَمَضُّ؛ أي الأشد مضضًا، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٧، مادة (ء م ض)، ص ٢٣٣.

العادات لأدَوِّنَها في كتابٍ مخصوصٍ على نَسَقِ عجائبِ المخلوقات، قال: فاسمع إذًا.

إنِّي أخْلَصْتُ خِدمةً لأميرٍ مشهورٍ في عصرنا بالفَضْلِ والكَرَمِ وعُلُو الهِمَمِ، فأجازني عليها جائزةً طُوبى لنفسٍ بها فائزة، إلا أنّه كان مِنَ الأصل المُقرَّر، والأمر المُقدَّر، أنْ أستميح مِنْ وَكِيلِه حوالة بها على بعض الصَّيَارِفَة الذين صيَّرَهم المال مِنَ الغَطَارِفَة[1]، فَقُلتُ في نفسي: إنِّي أكبر هذا الوكيل[2] بالألقابِ الحُسْنَى، وأصغر نفسي لديه كما هو شَأنُ الأدْنَى إذا خاطب الأعْلَى الأسْنَى، فَكَتبتُ إليه: أيُّهَا البدر الأَتَم، والنَيِّرُ الذي نوره عَم، والبحر الخِضَمْ، يا من لَفْظُه أحلى من الضَّرْب[3]، ومعناه أعَزُّ مِنَ الذهب، يا من يَقْصِدُه القريب والبعيد، وتعنو الأعِزَّة بين يديه كالعبيد، أنتَ الذي مَلأَت المَسَامِعَ مَحَامِدُه، وشَمِلَت جميعَ الخَلقِ فوائِدُه، ما ذُكِر أحدٌ في الفضائل إلاَّ وكُنْتَ خيرًا منه، وأفضَلَ وأكرَمَ وأمثَلَ وأمجَدَ وأشرَفَ وأبَرَّ وأرأف، إليكَ ينتهي الفخرُ كله، ومِنْكَ يَعْلَمُ الفضل أصله وفصله.

---

(١) الغِطْرِيفُ من الناس؛ أي السَيِّدُ الشريف، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٩، مادة (غ ط ر ف)، ص ٢٧٠.

(٢) م. ج، سقط تنقيط حرف الياء "الوكل"، ص٧٨.

(٣) الضَّربُ: أي العسلُ الأبْيَض الغليظ، ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، ج١٢، مادة (ض ر ب)، ص ١٦.

أنتَ روحُ العالم، وحياة بني آدم، أنت نورُ الأكوان، وبَهْجَةُ الزَّمَان، ها أنا عَبْدُكَ الذَلِيل المُسْتَظِل في ظلك الظَّلِيل، الدَّاعي لك آناءَ الليل وأطرافَ النهار، والمُسْتَجِيرُ بك من الأعْسَار، أُمَرِّغُ خدِّي على أعتابك، وأكَحِّلُ عيني بترابك، وألتمس مِنْ مكارمكَ الطَّامَة، وفواضِلِكَ العَامَّة، أنْ تُنْعِمَ عَلَيّ بكتب سطرين إلى الصرَّاف المَعْلُوم، لأقْبِضَ منه المبلغَ المرقوم، ومثلي مَن استجدى، ومِثْلُكَ مَنْ أجدى، فَدُم عزيزًا مُكرَّمًا مُبجَّلًا مُعظَّمًا مُوقَّرًا مُحترمًا مُمَجَّدًا مُفَخَّمًا، أنتَ خير الورى، وأشرَفُهم بلا مِرَا[1].

ثُمَّ كان أيضًا مِنَ الأصل المُقَرَر، والأمر المُقَدَّر، أنَّ هذا الاسترحام لا بُدَّ وأنْ يَصِلَ إلى أحدِ أعوانه اللئَام، فقال العون: تالله لأكِيدَنَّه، ما كان له أنْ يحصل على هذا المال إلَّا بعد أنْ يؤدِيَّ إليَّ البَخْشِيش، مِفْتَاح الآمَال، وخَاتِمَة الأعْمَال، فجعل يُدافِعُني ويُمَاطِلُني ويُمَنِّيني ويُحاوِلُني ويُراوغُني ويُخاتِلُني حتى ضِقْتُ به ذرعًا، وذُقتُ من التردُّدِ عليه نزعًا، فكم مِنْ وُحُولٍ خُضْتُها، وأمطارٍ أجْرَضْتُها[2]، ورياحٍ عرَّضْتُ وجهي لها، حتى كِدْتُ أحرض ولها.

ثُمَّ قدَّر الله أنْ ظَفِرتُ به، وهو راكعٌ ساجدٌ خاشعٌ عابدٌ، فصرخت في أذنه: أيُّها التَقِيُّ الأروع، الأعَبَدُ الأخشَعَ، أمَا حانَ لكَ أنْ تلتفت لفتةً

(١) أصلها "مراء"، لكن الهمزة أسقطت لدواعي استقامة التسجيع، وهي لغة تسهيل الهمز.

(٢) يَجْرَضُ؛ أي يَغَصُّ، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٧، مادة (ج ر ض)، ص ١٣٠.

واحدةً إلى الحق، وتعطيني ذلك المُهْرَق، والله لئن لم تُبْرِزه السَّاعَة لأشْكُوَنَّكَ إلى رئيس الديوان، ولأجْلِبَنَّ عليكَ الخزي والهَوان، أمَا تستحي مِنْ أنْ تركع لله وتأكل حَقَّ عِبَاد الله؟ فلمَّا رأى مِنِّي[1] الجِدَّ، وأنِّي في تحصيل الجائزة مُجِد، أسرع إلى إعطاءِ الحوالة، وقَنَط مِنْ أخذ العمالة؛ أعني البَخْشِيش الذي هو لكل سُؤلٍ سَبَبٌ وآلة، فأخَذتُها وسِرتُ إلى كاتب الصرَّاف، وقلتُ في نفسي: سأنفخه بالنُعُوت والأوصَاف، فَلَعَلَّه يكون مِنْ أهلِ الإنصَاف.

فلمَّا أنْ لقيتهُ وسَلَّمْتُ عليه وحَيَّيْتُه، قلتُ له: أَبَيْتَ اللَّعْنَ أيُّها الكاتب الألمعي الحَاذق اللوذعي[2]، الذي يُخَافُ مِنْ آثار قلمه على المَهَارِق ما يُخَافُ من أَثَرِ البَوَارِق والصَّوَاعِق، الذي له المقامُ الأعلى، والبيانُ الأجلى، كم لكَ مِنْ مأثرةٍ تُذْكَر، ومِنَّةٍ تُشْكَر، وصَنيعَةٍ كأنَّها الأطواق في الأعناق، أو كالشَّمسِ في الإشراق، يا أيُّها البدرُ المُنير، والشهم الخطير، إنِّي جئتكَ بهذه الحوالة فاصرفها لي بحقك، فإنَّك خير من يرجو الناس نَوَالَه.

فأخذها وكأنَّه اسْتَكْثَر المبلغ المرقوم فيها، وأضْمَرَ ليَتَحَوَّفَها[3] بالبَخْشِيش مِنْ حواشيها، فقال: يا خيبة الآمَال، ما عِنْدَنَا السَّاعةَ مَال، قُلتُ:

---

(١) م. ج، سقط حرف الياء "من"، ص ٧٩.

(٢) اللوذعي؛ أي الحديدُ الفؤاد واللسان الظريف كأنه يلذع من ذكائه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٨، مادة (ل ذ ع)، ص ٣١٧.

(٣) تَحَوَّفَه؛ أي تَنَقَّصَه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٩، مادة (ح و ف)، ص ٥٩. ومنه قول يونس بن حبيب النَّحوي (ت١٨٢هـ) في إجابته عن سبب عِظَمِ بَطنه: "تَحَوُّفِي النَّضيجَ مِنْ حَولِ النَّيء"، ينظر: الميداني، أبو الفضل (ت٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، (١٩٥٥م)، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ج١، ص١٤٤.

لا تقل هكذا بحياتك، فهو مُبَايِنٌ لشرف صِفَاتك، ولُطف ذاتك، فقال: هو كما قلتُ لك، فلا تُضِعْ في المَجِيءِ إليَّ عَمَلَك، فقلتُ: ما هذا دأب الصرافين المليئين، ولكن عِدْني إلى حِين، قال: لا وَعْدَ ولا تَأجِيل، فلا تُصَدِّع رأسي بالتطويل، قلتُ: إنِّي ذو قلمٍ مثلك، فإنْ شَكَوْتُكَ إلى صاحبِ الأمر استقبح فِعْلَك، واسترذل أصْلَك، بل وربما عَزَلَك وأحْبَطَ عملك، فَفَكَّر سَاعةً ثُمَّ قال: ويلك، ما كُنْتُ أحسَبُكَ مِنْ أرباب هذا المقال، ولكن ائتني إذًا بعد خمسة عشر يومًا، واكفِني في خلال ذلك عَذلًا ولَومًا.

فَسِرْتُ إليه في الوقتِ الموقوت، والأَجَلِ المَأمُوت[1]، فتوارى مني كمَا كان يتوارى عَونُ رئيس الديوان، فكأَنَّهُما في الشَّرِ صِنْوَان، و لم يَزَل على حالةِ التواري مني حتى نَدَّ الصبرُ عني، فانظر بالله إلى هذه الأحوال، وإلى هذا الفساد والاختلال، أ فَيُسَوَّغُ في البِلادِ المُتَمَدِّنَة لوكيلِ صَرَّاف ذي بال أنْ يقول ما عندنا مَال؟ أو أنْ يتوارى عن طالبِ الحق، ويَظَلَّ بين النَّاس معروفًا بالصدق؟ وما ذلك إلا لأجل البَخْشِيش، الذي صار في هذا العصر قوام المعيش، فما رأيك في هذه العَادَة، وما عندكَ فيها من الإفَادَة؟

(١) المَأمُوت: أي المَحْزُور، يُقال: هو إلى أجَلٍ مأموتٍ أي مَوقوت، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج٢، مادة (ء م ت)، ص٥.

قال الراوي: فقلتُ له نحمدُ الله على فَقْدِ هذه العَادَة مِنْ بلادنا، فهي غير معروفة عندنا، ولا عند أجدادنا، ولو كانَ شيءٌ[1] منها معروفًا لكانت كُتَّابُ الأخبار تُقَبِّحُها، فكان كُلُّ امرئٍ عنها مَظْلُوفًا[2]، وهذا هو الفَرقُ بيننا وبين سائِرِ الأُمَمِ غير المُتَمَدِّنَة، والتي بقيت على الطريقةِ القَدِيمَة المُسْتَهْجَنَة، وهو أنَّا نَسْعَى في إزالة ما عندنا من الشّرِّ والفَسَاد، وفي إصلاحِ حَالِ العِبَاد، فإذا رأينا من يَتَعَمَّدُ أذى الناس، شَنَّعْنَا[3] عليه في الصُحُفُ المنشورَة، والأخبارِ المأثورة، حتى يَسْلَمَ الخلقُ مِنْ ضَيرِه، ويكونَ عِبرةً لغيره.

ولعمري لولا تِلكَ الصُحُف لتمادى النَّاس في الشنار، ولجُّوا في الاستهتار، فَكُنْتَ تَجِدُ القويَّ يأكلُ الضعيف، والغَنِيَّ يَسْتَرِط[4] الفقير، وما كان لِحُرمَةِ المظلومِ مِنْ مُجِير، لأنَّ الشَّر مَغروسٌ في طِباع جميع بني آدم، فهم فيه أمثَالٌ سواء، مَنْ تَأخَّرَ منهم ومَنْ تقدَّم، بل المتأخرون لهم مِنْهُ الحَظُّ الأوَفَر، والنَّصِيبُ الأكبر.

(١) م. ج، سقط تنقيط حرف الشين "سيء"، ص ٨٠.

(٢) المَظْلُوفُ؛ أي المصون من أن يُنال، ينظر: لسان العرب: ج٩، مادة (ظ ل ف)، ص ٢٣١.

(٣) م. ج، سقط تنقيط حرف الشين "سنعنا"، ص ٨٠.

(٤) اسْتَرَطَ: أي ابتلع بسرعة دون مضغ، ينظر: السان العرب: ج٧، مادة (س ر ط)، ص٣١٣.

وكذلك أقول: إنَّ شُرُور المُتَمَدِنين المُتْرَفين أكثر مِنْ شُرُور الهَمَجِ الخَشِنين الظلفين[1]، لأنَّ الهَمَجَ لا يُؤثرون[2] البَخْشيش دينًا، ولا يَتَّخِذُونَه لكُلِّ أرب أربُونًا، فهذه الطريقةُ المُستعمَلةُ هنا نِصْفُها مِنَ التَمَدُن، ونِصْفُها مِنْ عدم التَدَيُّن، وكثيرًا ما تَتَشَابَهُ الأمورُ وتختلطُ ما بَينَ مَقبولٍ ومَنكُور.

أمَّا أنا فإنِّي أُنْكِرُ كُلَّ ما رأيتهُ مِنْ أحوالِ هذا البلد، إذ لم أَرَ منه سوى النكَد؛ ولا سيَّما طريقة البَخْشيش، والتَّوَصُلَ إليه بالحِيلَةِ والمَكرِ، والخيانَةِ والغَدر، وإنِّي إنْ شاء[3] الله تعالى متى رَجعتُ إلى أوطاني، وآنَسْتُ برؤية إخواني، أنْهَضتُهُم جَميعًا إلى تَشْهِيرِ هذه الطريقَةِ الذَّميمَة، وعواقِبِهَا الوَخِيمَة، ومِنَ الواجب على كُلِّ مُؤمِنٍ صحيحِ الإيمانِ أنْ يَسْعَى في إزالةِ الظُلْمِ والعُدْوَان، سواءَ كانَ بِعَمَلِه وطبِه، أو بِلِسَانِه أو بِقَلبِه، فهذا عندي هو المُؤمِنُ الأصيل، وغير ذلك كله تَدْلِيسٌ وتَضلِيل.

هذا وإنِّي أُصَبِّرُكَ على ما نَابَكَ مِنْ أهْلِك، وأدعو لكَ بِجَمْعِ شَمْلِك، وأسْتَودِعُكَ إلى مَنْ عنده عِلْمُ الحَقَائق، وأُوَدِّعُكَ وَدَاعَ مُحِبٍّ صَادِق، قال: ثُمَّ تَعَانَقنَا وتَفَارَقنَا، وعلى لَعْنِ الظَّالِمِينَ تَوَافَقنَا وتَوَاثَقنَا.

---

(١) الظَّلَف: أيّ الشِّدَّة والغلظ، ينظر: لسان العرب: ج٩، مادة (ظ ل ف)، ص٢٣١.

(٢) م. ج، سقط تنقيط حرف الثاء "يوــرون"، ص ٨١.

(٣) م. ج، سقط تنقيط حرف الشين "ساء"، ص ٨١.

المصادر والمراجع:

١. أولاً – المصادر:

٢. الشدياق، أحمد فارس (ت١٨٨٧م): المَقَامَة البَخْشِيشيَّة، (١٨٩٣م)، النسخة الحجرية مع الترجمة الفرنسية، مطبعة فونتانا، الجزائر.

٣. الشدياق، أحمد فارس (ت١٨٨٧م): المَقَامَة البَخْشِيشيَّة، (١٨٧١-١٨٧٢م)، مخطوط في كتاب كتر الرغائب في منتخبات الجوائب.

٤. ثانيًا – المراجع العربية:

٥. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الهروي (ت٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، (٢٠٠١م)، ط١، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٦.

٦. الأنصاري، النعمان بن بشير، شعر النعمان بن بشير الأنصاري: تح: يحيى الجبوري، (١٩٨٥م)، درا القلم، الكويت، ط٢.

٧. آصاف، يوسف، هو الباقي، (١٨٨٥م)، مطبعة القاهرة الحرة، القاهرة.

٨. البابا، محمد زهير: أحمد فارس الشدياق "دراسة موجزة لمكانة أسرته وقصة حياته وتنقلاته"، (٢٠٠٢م)، مجلة التراث العربي، المجلد ٢٢، العدد (٨٦-٨٧)، اتحاد الكتاب العرب، سوريا.

٩. البغدادي، ابن طيفور (ت٢٨٠هـ)، بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام، (١٩٠٨م)، تح: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة.

١٠. البيهقي، أبو بكر (ت٤٥٨هـ)، السنن الكبير: تح: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، (٢٠١١م)، القاهرة، ط١، ج٧.
١١. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت٢٧٩هـ)، سنن الترمذي: تح: بشار عواد معروف، (١٩٩٦م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ج٢.
١٢. التغلبي، أبو الأسود عمرو بن كلثوم (ت٥٨٤م)، ديوان عمرو بن كلثوم، (١٩٩٦م)، ط٢، تحقيق وشرح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٣. التَّغْلِبِيّ، المُهَلْهِل عَدِّيّ بن ربيعة بن الحَارث (ت٥٣١م)، ديوان المُهَلْهِل: (١٩٩٥م)، ط١، تحقيق: أنطوان القوَّال، دار الجيل، بيروت.
١٤. جبران، سليمان، كتاب الفارياق مبناه وأسلوبه وسخريته، (١٩٩١م)، مطبعة الاتحاد التعاونية، حيفا.
١٥. الجوهري، أبو نصر (ت٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: تح: أحمد عبر الغفور عطار، (١٩٨٧م)، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ج٤.
١٦. حسن، محمد عبد الغني، أحمد فارس الشدياق، سلسلة أعلام العرب، العدد ٥٠، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
١٧. الحلبي، محمد راغب الطباخ (ت١٣٧٠هـ)، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، (١٩٨٨م)، تح: محمد كمال، ط٢، مجلد ٧، دار القلم العربي، حلب.

١٨. الحميري، نشوان (ت٥٧٣هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تح: حسين بن عبد الله العمري وآخرون، (١٩٩٩م)، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ج٦.
١٩. خورشيد، فاروق، مصر في أدب الشدياق، (١٩٣٧م)، الهلال، مصر.
٢٠. ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (٣٢١هـ)، جمهرة اللغة، (١٩٨٧م)، ط١، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ج٢.
٢١. الدُّسوقي، عمر: نشأة النثر الحديث وتطوره، (٢٠٠٧م)، دار الفكر العربي، القاهرة.
٢٢. الذبياني، أبو إمامة زياد بن معاوية بن ضباب بن مَرَّة (ت٦٠٥م)، ديوان النابغة الذبياني، (١٩٨٥م)، ط٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.
٢٣. الرازي، زين الدين (ت٦٦٦هـ)، مختار الصحاح: تح: يوسف الشيخ محمد، (١٩٩٩م)، ط٥، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت.
٢٤. زبادي، وفاء يوسف إبراهيم، الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق "دراسة أدبية نقدية"، (٢٠٠٩م)، جامعة النجاح الوطنية، نابلس.
٢٥. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (١٣٩٦هـ)، الأعلام، (٢٠٠٢م)، ط١٥، ج٢، دار العلم للملايين، بيروت.

٢٦. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (١٣٩٦هـ)، الأعلام، (١٩٨٠م)، إشراف زهير فتح الله، ط٥، ج١، دار العلم للملايين، بيروت.

٢٧. زهير بن أبي سلمى (ت٦٠٩م)، ديوان زهير بن أبي سلمى، (١٩٧٠م)، ط١، تح: فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٢٨. زيدان، جورجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج٢، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢٩. الشايب، أحمد، الأسلوب "دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية"، (١٩٩١م)، ط٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٣٠. الأشتر، عبد الكريم، في نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث "أحمد فارس الشدياق"، (١٩٦٦م)، النشر ١، أعلام الرواد، المكتبة الحديثة، دمشق.

٣١. الشدياق، طنوس بن يوسف، أخبار الأعيان في جبل لبنان، (١٩٥٤م)، وقف عليه وناظر طبعه المعلم بطرس البستاني، ج١، مكتبة العرفان، بيروت.

٣٢. الشدياق، فارس بن يوسف، الساق على الساق في ما هو الفارياق أو "أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام"، (١٩١٩م)، عني بنشره يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب بمصر، القاهرة.

٣٣. شكري، غالي: النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، (١٩٩٢م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

٣٤. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، (١٩٨٧م)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.

٣٥. ضيف، شوقي، المقامة، (١٩٧٣م)، ط٣، دار المعارف، القاهرة.
٣٦. طرابلس، فواز، والعظمة، عزيز، سلسلة الأعمال المجهولة أحمد فارس الشدياق.
٣٧. عاشور، رضوى، الحداثة الممكنة "الشدياق والساق على الساق"، (٢٠٠٩م)، ط١، دار الشروق، مصر.
٣٨. العامري، لبيد بن ربيعة (ت٦٦١م)، ديوان لبيد بن ربيعة، (١٩٦٢م)، تح: إحسان عباس، التراث العربي- وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
٣٩. عبود، مارون: صقر لبنان "بحثٌ في النهضة الأدبية الحديثة ورجلها الأول أحمد فارس الشدياق"، (١٩٥٠م)، ط١، منشورات دار المكشوف، بيروت، لبنان.
٤٠. عوض، لويس، تاريخ الفكر المصري الحديث، (١٩٦٩م)، ط٣، ج٢، دار الهلال، القاهرة.
٤١. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ)، العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ج٦.
٤٢. ليفين، زالمان: الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث "في لبنان وسوريا ومصر"، (١٩٧٨م)، ط١، ترجمة: بشير السباعي، دار ابن خلدون، بيروت.
٤٣. مرتاض، عبد الملك، مقامات السيوطي، (١٩٩٦م)، ط١، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
٤٤. مسعد، بولس، فارس الشدياق، (١٩٣٤م)، نشره الدكتور فيليب الشدياق، مطبعة الإخاء، القاهرة.

٤٥. مصطفى، أحمد أمين، فنون النثر في العصر العباسي، المكتبة الأزهرية للتراث، (١٩٩٥-١٩٩٦م).

٤٦. المطوي، محمد الهادي، أحمد فارس الشدياق "حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة"، (١٩٨٩م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٤٧. معجم الدوحة التاريخي.

٤٨. المقدسي، أنيس: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، (١٩٦٣م)، دار الكاتب العربي، دمشق.

٤٩. ابن منظور (ت٧١١هـ)، لسان العرب، (١٤١٤هـ)، ط٣، دار صادر، بيروت.

٥٠. الميداني، أبو الفضل (ت٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، (١٩٥٥م)، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ج١.

٥١. نجم، محمد يوسف، القصة في الأدب العربي الحديث، (١٩٦٦م)، ط٣، دار الثقافة، بيروت.

٥٢. نجم، محمد يوسف، الأدب العربي في آثار الدارسين، (١٩٦١م)، بيروت، دار العلم للملايين.

٥٣. وتار، محمد رياض، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، (٢٠٠٢م)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

- **المراجع الأجنبية:**

- Taieb, Lebbaz: La résistance des Ouled Nail après 1847 "selon les écrits d'Arnaud, interprète militaire dans "La Revue africaine. 2021, Dirassat & Abhath, The Arabic Journal of human and social sciences, Vol 13, No 2.

References

- al-Maṣādir wa-al-marājiʿ :
- al-Maṣādir :
- al-Shidyāq, Aḥmad Fāris (t1887m) : almaqāmah albakhshīshyyah, (1893m), al-nuskhah al-ḥajarīyah maʿa al-tarjamah al-Faransīyah, Maṭbaʿat fwntānā, al-Jazāʾir.
- al-Shidyāq, Aḥmad Fāris (t1887m) : almaqāmah albakhshīshyyah, (1871-1872m), makhṭūṭ fī Kitāb Kanz al-Raghāʾib fī muntakhabāt al-Jawāʾib.
- al-Marājiʿ al-ʿArabīyah
- al-Azharī, Abū Manṣūr Muḥammad ibn Aḥmad al-Harawī (t370h), Tahdhīb al-lughah, (2001M), Ṭ1, taḥqīq : Muḥammad ʿAwaḍ Murʿib, Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī, Bayrūt, j6.
- al-Anṣārī, al-Nuʿmān ibn Bashīr, shiʿr al-Nuʿmān ibn Bashīr al-Anṣārī : tḥ : Yaḥyá al-Jubūrī, (1985m), Dār al-Qalam, al-Kuwayt, ṭ2.
- Āṣāf, Yūsuf, huwa al-Bāqī, (1885m), Maṭbaʿat al-Qāhirah al-ḥurrah, al-Qāhirah.
- al-Bābā, Muḥammad Zuhayr : Aḥmad Fāris al-Shidyāq "dirāsah mūjazah lmkānh usratuh wa-qiṣṣat ḥayātuhu wtnqlāth", (2002M), Majallat al-Turāth al-ʿArabī, al-mujallad 22, al-ʿadad (86-87), Ittiḥād al-Kitāb al-ʿArab, Sūriyā.
- al-Baghdādī, Ibn Ṭayfūr (t280h), Balāghāt al-nisāʾ wa-ṭarāʾif kalāmihinna wa-mulaḥ nawādirihinna wa-akhbār dhawāt al-raʾy minhunna wa-ashʿāruhunna fī al-Jāhilīyah wa-Ṣadr al-Islām, (1908m), tḥ : Aḥmad al-Alfī, Maṭbaʿat Madrasat Wālidat ʿAbbās al-Awwal, al-Qāhirah.
- al-Bayhaqī, Abū Bakr (t458h), al-sunan al-kabīr : tḥ : Markaz Hajar lil-Buḥūth wa-al-Dirāsāt al-ʿArabīyah wa-al-Islāmīyah, (2011M), al-Qāhirah, Ṭ1, j7.
- al-Tirmidhī, Abū ʿĪsá Muḥammad ibn ʿĪsá (t279h), Sunan al-Tirmidhī : tḥ : Bashshār ʿAwwād Maʿrūf, (1996m), Dār al-Gharb al-Islāmī, Bayrūt, Ṭ1, j2.
- al-Taghlibī, Abū al-aswad ʿAmr ibn Kulthūm (t584m), Dīwān ʿAmr ibn Kulthūm, (1996m), ṭ2, taḥqīq wa-sharḥ : Imīl Badīʿ Yaʿqūb, Dār al-Kitāb al-ʿArabī, Bayrūt.
- alttaghlibī, almuhalhil ʿaddī ibn Rabīʿah ibn alḥārth (t531m), Dīwān almuhalhil : (1995m), Ṭ1, taḥqīq : Anṭwān alqwwāl, Dār al-Jīl, Bayrūt.
- Jubrān, Sulaymān, Kitāb al-Fāriyāq mabnāhu wa-uslūbuhu wa-sukhriyatuh, (1991m), Maṭbaʿat al-Ittiḥād al-Taʿāwunīyah, Ḥayfā.
- al-Jawharī, Abū Naṣr (t393h), al-ṣiḥāḥ Tāj al-lughah wa-ṣiḥāḥ al-ʿArabīyah : tḥ : Aḥmad ʿabra al-Ghafūr ʿAṭṭār, (1987m), ṭ4, Dār al-ʿIlm lil-Malāyīn, Bayrūt, j4.
- Ḥasan, Muḥammad ʿAbd al-Ghanī, Aḥmad Fāris al-Shidyāq, Silsilat Aʿlām al-ʿArab, al-ʿadad 50, al-Dār al-Miṣrīyah lil-Taʾlīf wa-al-Tarjamah, al-Qāhirah.
- al-Ḥalabī, Muḥammad Rāghib al-Ṭabbākh (t1370h), Aʿlām al-nubalāʾ bi-tārīkh Ḥalab al-shahbāʾ, (1988m), tḥ : Muḥammad Kamāl, ṭ2, mujallad 7, Dār al-Qalam al-ʿArabī, Ḥalab.
- al-Ḥimyarī, Nashwān (t573h), Shams al-ʿUlūm wa-dawāʾ kalām al-ʿArab min alklwm, tḥ : Ḥusayn ibn ʿAbd Allāh al-ʿUmarī wa-ākharūn, (1999M), Ṭ1, Dār al-Fikr al-muʿāṣir, Bayrūt, j6.
- Khūrshīd, Fārūq, Miṣr fī adab al-Shidyāq, (1937m), al-Hilāl, Miṣr.
- Ibn Durayd, Abū Bakr Muḥammad ibn al-Ḥasan al-Azdī (321h), Jamharat al-lughah, (1987m), Ṭ1, taḥqīq : Ramzī Munīr Baʿlabakkī, Dār al-ʿIlm lil-Malāyīn, Bayrūt, j2.

- alldduswqy, ‘Umar : Nash’at al-nathr al-ḥadīth wa-taṭawwuruh, (2007m), Dār al-Fikr al-‘Arabī, al-Qāhirah.
- al-Dhubyānī, Abū imāmat Ziyād ibn Mu‘āwiyah ibn Ḍabāb ibn marrah (t605m), Dīwān al-Nābighah al-Dhubyānī, (1985m), ṭ2, taḥqīq : Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm, Dār al-Ma‘ārif, al-Qāhirah.
- al-Rāzī, Zayn al-Dīn (t666h), Mukhtār al-ṣiḥāḥ : tḥ : Yūsuf al-Shaykh Muḥammad, (1999M), ṭ5, al-Maktabah al‘ṣryt-al-Dār al-Namūdhajīyah, Bayrūt.
- Zabādī, Wafā’ Yūsuf Ibrāhīm, al-ajnās al-adabīyah fī Kitāb al-sāq ‘alá al-sāq fīmā huwa al-Fāriyāq "dirāsah adabīyah naqdīyah", (2009M), Jāmi‘at al-Najāḥ al-Waṭanīyah, Nābulus.
- al-Ziriklī, Khayr al-Dīn ibn Maḥmūd ibn Muḥammad ibn ‘Alī ibn Fāris (1396h), al-A‘lām, (2002M), ṭ15, j2, Dār al-‘Ilm lil-Malāyīn, Bayrūt.
- al-Ziriklī, Khayr al-Dīn ibn Maḥmūd ibn Muḥammad ibn ‘Alī ibn Fāris (1396h), al-A‘lām, (1980m), ishrāf Zuhayr Fatḥ Allāh, ṭ5, j1, Dār al-‘Ilm lil-Malāyīn, Bayrūt.
- Zuhayr ibn Abī Salmá (t609m), Dīwān Zuhayr ibn Abī Salmá, (1970m), Ṭ1, tḥ : Fakhr al-Dīn Qabāwah, Manshūrāt Dār al-Āfāq al-Jadīdah, Bayrūt.
- Zaydān, Jūrjī, tarājim mashāhīr al-Sharq fī al-qarn al-tāsi‘ ‘ashar, j2, Manshūrāt Dār Maktabat al-ḥayāh, Bayrūt.
- al-Shāyib, Aḥmad, al-uslūb "dirāsah balāghīyah taḥlīlīyah li-uṣūl al-asālīb al-adabīyah", (1991m), ṭ8, Maktabat al-Nahḍah al-Miṣrīyah, al-Qāhirah.
- al-Ashtar, ‘Abd al-Karīm, fī nuṣūṣ mukhtārah min al-adab al-‘Arabī al-ḥadīth "Aḥmad Fāris al-Shidyāq", (1966m), al-nathr 1, A‘lām al-Rūwād, al-Maktabah al-ḥadīthah, Dimashq.
- al-Shidyāq, Ṭannūs ibn Yūsuf, Akhbār al-a‘yān fī Jabal Lubnān, (1954m), waqafa ‘alayhi wa-nāẓara ṭab‘ihi al-Mu‘allim Buṭrus al-Bustānī, j1, Maktabat al-‘Irfān, Bayrūt.
- al-Shidyāq, Fāris ibn Yūsuf, al-sāq ‘alá al-sāq fī mā huwa al-Fāriyāq aw "Ayyām wa-shuhūr w’‘wām fī ‘Ajam al-‘Arab wāl’‘jām", (1919m), ‘uniya bi-nashrihi Yūsuf Tūmā al-Bustānī ṣāḥib Maktabat al-‘Arab bi-Miṣr, al-Qāhirah.
- Shukrī, Ghālī : al-Nahḍah wa-al-suqūṭ fī al-Fikr al-Miṣrī al-ḥadīth, (1992m), al-Hay’ah al-Miṣrīyah al-‘Āmmah lil-Kitāb, Miṣr.
- al-Ṣulḥ, ‘Imād, Aḥmad Fāris al-Shidyāq, āthāruh wa-‘aṣruh, (1987m), Sharikat al-Maṭbū‘āt lil-Tawzī‘ wa-al-Nashr, Bayrūt.
- Ḍayf, Shawqī, al-Maqāmah, (1973m), ṭ3, Dār al-Ma‘ārif, al-Qāhirah.
- Ṭarābulus, Fawwāz, wāl‘ẓmh, ‘Azīz, Silsilat al-A‘māl al-majhūlah Aḥmad Fāris al-Shidyāq.
- ‘Āshūr, Raḍwá, al-ḥadāthah al-mumkinah "al-Shidyāq wālsāq ‘alá al-sāq", (2009M), Ṭ1, Dār al-Shurūq, Miṣr.
- al-‘Āmirī, Labīd ibn Rabī‘ah (t661m), Dīwān Labīd ibn Rabī‘ah, (1962M), tḥ : Iḥsān ‘Abbās, al-Turāth al‘rby-Wizārat al-Irshād wa-al-Anbā’, al-Kuwayt.
- ‘Abbūd, Mārūn : Ṣaqr Lubnān "bḥthun fī al-Nahḍah al-adabīyah al-ḥadīthah wrjlhā al-Awwal Aḥmad Fāris al-Shidyāq", (1950m), Ṭ1, Manshūrāt Dār al-Makshūf, Bayrūt, Lubnān.
- ‘Awaḍ, Luwīs, Tārīkh al-Fikr al-Miṣrī al-ḥadīth, (1969m), ṭ3, j2, Dār al-Hilāl, al-Qāhirah.
- al-Farāhīdī, al-Khalīl ibn Aḥmad (t175h), al-‘Ayn, tḥ : Mahdī al-Makhzūmī wa-Ibrāhīm al-Sāmarrā’ī, Dār wa-Maktabat al-Hilāl, al-Qāhirah, j6.

- lyfyn, zālmān : al-Fikr al-ijtimāʻī wa-al-siyāsī al-ḥadīth "fī Lubnān wa-Sūriyā wa-Miṣr", (1978m), Ṭ1, tarjamat : Bashīr al-Sibāʻī, Dār Ibn Khaldūn, Bayrūt.
- Murtāḍ, ʻAbd al-Malik, Maqāmāt al-Suyūṭī, (1996m), Ṭ1, Ittiḥād al-Kitāb al-ʻArab, Dimashq.
- Musʻad, Būlus, Fāris al-Shidyāq, (1934m), nasharahu al-Duktūr Fīlīb al-Shidyāq, Maṭbaʻat al-Ikhā', al-Qāhirah.
- Muṣṭafá, Aḥmad Amīn, Funūn al-nathr fī al-ʻaṣr al-ʻAbbāsī, al-Maktabah al-Azharīyah lil-Turāth, (1995-1996m).
- al-Maṭwī, Muḥammad al-Hādī, Aḥmad Fāris al-Shidyāq "ḥayātuhu wa-āthāruh wa-ārā'uhu fī al-Nahḍah al-ʻArabīyah al-ḥadīthah", (1989m), Dār al-Gharb al-Islāmī, Bayrūt.
- Muʻjam al-Dawḥah al-tārīkhī.
- al-Maqdisī, Anīs : al-Funūn al-adabīyah wa-aʻlāmuhā fī al-Nahḍah al-ʻArabīyah al-ḥadīthah, (1963M), Dār al-Kātib al-ʻArabī, Dimashq.
- Ibn manẓūr (t711h), Lisān al-ʻArab, (1414h), ṭ3, Dār Ṣādir, Bayrūt.
- al-Maydānī, Abū al-Faḍl (t518h), Majmaʻ al-amthāl, tḥ : Muḥammad Muḥyī al-Dīn ʻAbd al-Ḥamīd, (1955m), Maṭbaʻat al-Sunnah al-Muḥammadīyah, al-Qāhirah, j1.
- Najm, Muḥammad Yūsuf, al-qiṣṣah fī al-adab al-ʻArabī al-ḥadīth, (1966m), ṭ3, Dār al-Thaqāfah, Bayrūt.
- Najm, Muḥammad Yūsuf, al-adab al-ʻArabī fī Āthār al-dārisīn, (1961m), Bayrūt, Dār al-ʻIlm lil-Malāyīn.
- Wattār, Muḥammad Riyāḍ, Tawẓīf al-Turāth fī al-riwāyah al-ʻArabīyah al-muʻāṣirah, (2002M), Ittiḥād al-Kitāb al-ʻArab, Dimashq.
- al-Marāji‘ al-ajnabīyah:
- Taieb, Lebbaz : La résistance des Ouled Nail après 1847 “ selon les écrits d ’ Arnaud, interprète militaire dans “ La Revue africaine. 2021, Dirassat & Abhath, The Arabic Journal of human and social sciences, Vol 13, No 2.